

البعد الديني في رواية "رحلة بالداसार" لأمين معلوف

جلال الدين سماعن
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 - الجزائر

مقدمة

في الرواية، اغتراب الذات اللاهوتي في رحلة الوهم والبحث عن الخلاص "أتساءل أحيانا عن رأي الخالق بما يقوله عباده. وأتمنى أن أعرف إلى أي كفة يميل ميزان عطفه. إلى كفة الذين يتوقعون للعالم نهاية مباغتة، أم كفة الذين ينكهنون له بمسار طويل؟ إلى كفة الذين يحكمون العقل، أم الذين يزدرونه ويحقرونه؟"¹

اهتم الإنسان بنهاية العالم كنوع من قلقه منذ القدم، وطرح الكثير من التساؤلات عن الأسباب التي أوجدته والأسباب التي ستنتهيها. تحدثت الخلائق عن نيازك وطفوفان وكوارث وأوبئة وعن نكران العلم وعن أقوام نجت من نهاية عوالم سبقتنا، فكان للأرض عدة بدايات. كما اهتمت الديانات الثلاث بهذا المستور الذي لم يتجل، فمثلا "رؤيا يوحنا" التي ضمت إلى العهد الجديد، ومنها اشتقوا مصطلح أبوكاليسس والذي يعني رفع الغطاء. واهتم الأدباء بدورهم بهذا الصدد حيث يتخيل كل واحد منهم هذا الوضع المجهول وكيفية الخلاص منه، فتناولت "ظل المدفأة" (1950) و"وا أسفاه على بابل" (1959) أبطال حاولوا النجاة من ضربة نووية، في حين استسلم أبطال رواية "على شاطئ البحر" لقدرة وحرصت كاتبة فرانكشتاين، ماري شيلي، على ذكر

¹ أمين معلوف، رحلة بالداसार، ترجمة نهلة بيضون، دار ANEP ودار الفارابي، الجزائر، 2001م، ص: 273.

"نهاية العالم وبائياً" كالطاعون الذي انتقل بالفئران التي صعّدت إلى السفينة من هو كونغ باتجاه إيطالية ومن ثمة إلى كل أوروبا.. وكتب في هذا الصدد أيضاً جون ستيوارت "الأرض تصمد" و"العالم الفارغ" لصامويل يود، "أنا الأسطورة" لريتشارد ماثيوس، كما ظهرت النهايات الفلكية في رواية الكاتبين "فيليب وايلي وإيدوين بالمر" عندما تصطمم العوالم، "قصة" إيروس وكارميون "للكاتب إدغار آلان بو، و"أوميغا آخر أيام العالم" للكاتب وعالم الفلك كاميل فلاماريون... كما كتبوا عن النهايات جراء التغيّرات المناخية فنجد وارد مور يكتب "أخضر مما تعتقد" وبراين أديس "الاحتباس الحراري"، كما كتب الكاتب الإنجليزي جي بالارد "غرق العالم" ثم "حرق العالم" ثم "جفاف" والعديد من النهايات التي تناولها الأدب ومنها رواية الكاتب اللبناني أمين معلوف "رحلة بالداسار"، هذا التاجر الجنوى الذي يلاحق خلاصه مخافة من نهاية العالم المتزامن مع عام الوحش 1666، والتي ستشكل موضوع بحثنا هذا.

لقد انتهى هايدجر إلى أن الوجود/الحياة متاهة، كأنك دخلت مدينة قديمة لا تعرف كيف تخرج من دروبها المجهولة، وحده مرشد ما قد يستطيع أن يكون دليلاً ليخرجك منها، وهذا المرشد/الدليل غير موجود ووحدتها الصدفة والصدفة فقط من يمكنها أن تقدم لك خيارات بديلة مصحوبة بحظ كبير من أجل الخروج للدخول مرة أخرى في متاهة جديدة: الحياة بخلاصة لعبة نرد! لذلك نيتشه وسيوران مثلاً كتباً بمنطق الشذرة، عوض الكتابة النسقية التي توهم صاحبها أن هناك منطلقات ما تؤدي بشكل حتمي إلى نتائج ما. وهذه المسألة تحيّر أكثر حينما ندرك أن الفلاسفة ما قبل سقراط كانوا واعون بها، وفهموا الزمن التاريخي/الحضاري كدائرة لا كمستقيم، والوهم من يؤمن بغير هذا، حقيقة الوجود مرعبة للإنسان العادي إذا أدركها. لقد صرخ نيتشه "حذارى أن توقظوا الناس من أوهامهم".

أمين معلوف يكتب لأنه يعلم ما يعنيه التاريخ ويعانيه. لقد كانت له قدرة واسعة في تطويع الأحداث ونقلها إلى القارئ على شكل مواجهة ومحاكمة

وجودية بسبر الثغرات اللاهوتية وتساؤلات الفلسفة، وقد انشغل الإنسان مذ جاء إلى هذا الوجود بفكرة النهاية ويوم الحساب، واضعاً تصوراً صارماً أن الأخطاء لا يجب أن تذهب سدى ومن تملص من محكمة الأرض لن يتملص من محكمة السماء حتى يموت الإنسان مطمئناً لعادلة الله.. اختار أمين معلوف هذه الرحلة لتكون رحلة الخلاص الذي ترجم في كتاب المازاندراني الذي يحمل عنوان "الاسم المئة" والذي يؤدي الحصول عليه وكشف هذا الاسم المخبوء إلى نيل الخلاص من كارثة نهاية العالم التي كانت محور الشخصيات داخل العمل الروائي. فقد قدم الناس من كل مكان إلى محل البطل الجنوبي الذي يهتم بجمع التحف والكتب النادرة للسؤال عنه لتبدو لنا الشراكة الذائعة الصيت في مكنون الفرد المهزوز وجودياً، والذي يتعلق بقشة حتى تخطئه النهاية بدل التوقف عن التفكير بالموت وتحويل أفكاره إلى شيء يستحق الحياة. ولا ينسى الكاتب فتح قوس لنا ليشرح طريقة بديلة عن الخلاص الدنيوي والذي يتعلّق بـ "امرأة تحبها"، مشيراً إلى تلك الفوارق التي تقدمها كل قناعة لكن داخل شخصية واحدة جربت البحث عن الكتاب ثم البحث عن المرأة.²

يقول الفيلسوف أبو بكر الرازي في فضل العقل أن الرذيلة الكبرى في نظره والتي يعتبرها أم الرذائل هي الخوف من الموت، وفي هذه الرواية كان الموت حاضراً أكثر من حضور الحياة، كانت النهاية طاغية على تفكير البشر. لقد عبّر الكاتب عن قلقه الوجودي عبر شخصيات الرواية وأفرد الجدل الطويل القائم حول يوم الحساب مشيراً إلى الكثير من الإشارات والتنبؤات التي رافقت رحلة بطله بالداसार من جيبّل بلبنان وصولاً إلى جنوة وطن الأجداد، متطرقاً لأكثر الحيل التي عجز علماء اللاهوت والفلاسفة عن ضبطها، وبين جدلية القضاء والقدر والجبرية وصناعة قدرك بنفسك، تخطب الإنسان داخل

² Voir aussi : Sous la direction de Rachel Bouvet et Soundouss El Kettani, *Amin Maalouf, une œuvre à revisiter*, Presse de l'Université du Québec, Québec, 2014, pp. 39-63.

مناهة الغيبيات التي تطرح نفسها دائماً على صيغة جواب سُؤاليّ للسؤال، حيث نرى صراع العقل مع الخرافة تتجسد بطريقة طاغية وملفتة للانتباه. فبالداسار المثقف والذي على اطلاع بأمور كثيرة ينساق داخل مجزرة التنبؤات حيث يشير إلى مقصلة العقل في كلِّ مرّة يتابع مهمة اللحاق بالكتاب من مدينة إلى مدينة.. فلماذا يعجز الإنسان عن الحياة بعيداً عن مخاوفه من النهاية؟ لقد ألفنا التساؤل عما ليس في متناولنا، وأجرى البشر كل المحاولات لمعرفة كيف تفنى الروح ويموت الجسد، لكن العجز الذي يقدمونه مع كل محاولة هو الذي يفرض بدائل لا معقولة تخيب معه مملكة العقل لصالح مملكة الخرافة التي تشبعت بها الديانات مجيبة عن كل تساؤل واضحة النهاية البشرية للإنسان. الأمر الذي جعل هذا الإنسان ينسى العبادات الدنيوية من عمل وعلم وحياة ممكنة ويتفرغ للخوف والعبادات الدينية التي يظنّ جازماً أنها من تقيه يوم الدينونة من العقاب. لقد غلف المجهول إذن بطاقة كبيرة من خيانة الحياة، تقدم الحياة الموت كفكرة يومية، في المقابل يظل الموت تعبيرا شاسع عن ما بعد الحياة، فبين الاستسلام والسأم وبين التراجع عن الممارسة و الممارسة عجز الإنسان عن خوض الزمن الحاضر إذ ربط ذاكرته بالمستقبل الغريب وخذل الراهن بالصراع لأجل الجزء اللامعلوم. يلخص لنا الكاتب صراعات الإنسان البطل في روايته من خلال تتبعه ليوميّاته التي يصر على تدوينها باستمرار، مما جعله ينتقل بين أربع دقاتر في مجموع الرواية، الرقم أربعة المقدس عند الشعوب السامية والذي له رمز في كل ديانة والمتعلق بالكون مثلاً أربع فصول؛ ففي الإسلام الخلفاء المسلمين أربعة، وأئمة الفقه أربعة والأشهر الحرم أربعة.. وفي المسيحية يرمز للثبات والدوام ويبلغ عدد أطراف الصليب أربعة والأناجيل أربعة واهتدت الدولة الرومانية من الوثنية إلى المسيحية في القرن الرابع وكرست الكنيسة أربعة دكاترة في اللاهوت: أمبروسيو سوسس، أغسطينوس، غريغوريوس الكبير وإيرونيوس. وفي رؤية يوحنا يظهر الأربعة عالمية الفعل في المكان والزمان ويرمز إلى العالم المكوّن

من أربع عناصر: السماء، الماء، الهاوية أو الجحيم والأرض.. أما عند العبرانيين فيدل على المجموع الكوني والأفق الجغرافي كله: الأمام، الخلف، اليمين والشمال، وفي الطقس العبراني لعيد الفصح توضع أربع كؤوس من النبيذ على الطاولة لكل منها رمز خاص: الثالثة الطافحة بالنبيذ تسمى كأس إيليا ولا يتذوقها أحد إذ يفترض أنها تنتظر إيليا قبل عودة المسيح المنتظر. لهذا لا أعتقد أنّ كاتباً مثل معلوف يفوته أمر أهمية هذا العدد في معتقدات وفلسفات الأرقام التي تعود إلى اليونان القديمة والتي تطرق لها الكاتب من خلاص شخصيات روايته وتحدث عن وزن الحروف رقمياً مثلما فعل جراء حديث أقيم مع "بومه" ابن أخت البطل والبطل في هذا الشأن. ولا ينسى الكاتب أن يبدي اعتراضه لمثل هذه الميولات التي لا أساس لها من الصحة والتي شوهت مفهوم المنطق، فمنذ البداية اختار الكاتب بالداسار تاجرا للكاتب والتحف حتى يرفع من مستوى الصراع ما بين عقل المثقف بائع الكتب "المعرفة" وبين الخرافة "كتاب المازاندراني" وحتى يمنحنا ذلك الشعور الخفي من حوار الأديان عن طريق التحف المتبادلة بينه وبين أصدقائه من الديانات الأخرى المهتمين بالشأن ذاته.

يعانى الإنسان مشاكله الوجودية التي تفصله عن جوهره الاجتماعى مقيداً باللاهوت الذي يملك القاعدة الشعبية المتينة، فيبدأ تلقائياً بالاعتراب عن ذاته الحقيقية فيفقد حرّيته الأصلية جراء الاستئصال أو التزييف. ونجد دايفيد فروم يرى أن هذا الاعتراب نوع من الخبرة التي فيها يرى الشخص كغريب عن ذاته، فيشعر أنه لا يمكنه التحكم في أفعاله بل تسوقه أفعاله وينساق وراءها مما يجعله بعيد الاتصال عن ذاته وبعيد الاتصال بأي فرد آخر. الأمر الذي لخصه بالداسار في ذاته التي سيطرت عليها مجموعة من التنبؤات تقوده حيث لا يصدقها في قراراته وحيث كان يبحث عن الخلاص في خرافة كان عليه إيجاد الخلاص في داخله الذي له مفاتيح النهاية الحقيقية حين يستنفذ الإنسان طاقته الروحية. لهذا علينا التسليم دائماً إلى التاريخ المستور الذي لا يتطلب البحث عليه لأنه قادم إلينا.

ملخص الرواية

قسّم الكاتب هذه الرحلة الشاقة إلى أربعة دفاتر رافقته في كل مرة يضيّع منه واحدا في مدن يغادرها على وجه السرعة ليشتري آخرا بديلا عنه. كل دفتر منهم يحمل عنوان مشاقه و محطاته التي غدّت هيامه في أصقاع الكون بحثا عن الكتاب الذي لم يكُ بالنسبة لي إلا عابرا قلقه الوجودي فيما يخص يوم الدينونة باحثا عن الخلاص في كتاب المازندراني:

1. الدفتر الأول "الاسم المئة"

يبدأ عام الوحش بالنسبة لبaldasار يوم يزور محله الذي يعنى ببيع الأشياء النادرة من تحف و كتب وغيرها. يبدأ حين يزوره البابا أفديكوم نيكولافيتش باحثاً عن كتاب "الاسم المئة" للمازندراني يتحدث فيه عن نهاية العالم بقدم عام الوحش، وعن الاسم المخبوء لله بعد 99 اسماً الذي يقول البعض أنه "ال" وأن حصولك على هذا الكتاب يعني حصولك على الاسم وهذا سيحميك من كل الأخطار. لكن البابا يعود أدراجه خاوي الوفاض بعد أن يخبره البطل أنه لا وجود لهذا الكتاب حتى وكل ما سمع عنه مجرد كلام يعني بأنهم سمعوا عنه، ولهذا فإنه ليس إلا عدم تحوّل قصد، مطارذ ومستهزأ بتنبؤات البابا ومن يؤيده في هذا الأمر. الكتاب الذي ما إن غادر أفديكوم محله حتى ازدهرت تجارته بفضل وأقبل الناس على كل عنوان يشاع أنه تحدث عن الأمر، أي عام الوحش، لكن الوهم يتبدد حين يزور محله الشيخ إدريس بغية بيع كتاب ليقنات من ثمنه وبهذا يحافظ على كرامته فلا يجد بالداسار النبيل المنحدر من عائلة عريقة إلا أن يقبل بالأمر رغم أنه لم ير في الكتاب أي منفعة وبدوره قدمه هدية لأحد زبائنه، وخصص مبلغا للشيخ إدريس وكان ذلك سبب زيارته لبيت هذا العجوز فعرض عليه كتابا آخر لكنه كهديّة. ومن غير المتوقع أن يكون الكتاب الذي شغل العالم، الأمراء والبيوت المقدسة موجود في بيت أفقر الخلق، إنه كتاب "الاسم المئة" الآن بين يدي بالداسار الذي ما إن

حصل عليه وهياً نفسه لمطالعتة حتى ضيِّعه ببيعه المرغم لرسول فرنسا فارس مورمنتيل الذي أخذه على جناح السرعة بكل ما كان يملك من ذهب وقصد طرابلس ومن ثمة القسطنطينية. على إثر هذه الحادثة الفادحة وجد بالداसार نفسه باع ما ورثه العجوز الذي كان في إمكانه أن يعيش حياة قديرة لو أنه فعل ذات الأمر لكنه أبى إلا أن يهديه لبالداसार مؤتمناً إياه، وحين شعر البطل بخيانتة التي أكدها ابن أخته "بومه" ووفاة العجوز بعد بضع أيام والذي أرجع سببه البطل للأمر الذي قام به، قرر رفقة أبناء أخته "بومه" و"حبيب" وخادمه "حاتم" اللحاق بالرسول إلى القسطنطينية. ما هي إلا لحظات حتى انظم إليهم "رسمي" شقيق زوج "مارتا" التي اختفت من القرية في الوقت ذاته. مارتا ابنة الحلاق التي أحبها بالداसार ورغب في الزواج بها لولا أنها قررت الزواج من أحد السوقيين النصابين الذي أخذ كل ما تملك ورحل.

تبدأ المغامرة من مدينة جليل مرورا بقرية أنفة التي يبيتون فيها لليلة واحدة وصولاً إلى طرابلس المدينة التي يسترجع فيها البطل أمجاد أجداده الفاتحين وقلاعهم، ويحكي في يومياته التي بدأ في تدوينها مذ عزم على خوض هذه الرحلة عن الحروب الصليبية في المشرق بمساعدة أنسالدو أحد أجداده، وعن معاملة المماليك بعد سقوط عهدهم، عن التخريبية التي أعادتهم من جليل إلى جنوة مسقط رأسهم، وهنالك لقبوا بالجنوبيين من الشرق. حكى عن عودة جده أوغو أدراجه إلى جليل وورق في المنطقة تاريخهم ككل، ثم يسرد بأسى حادثة أصدقائه أصحاب المكتبات في طرابلس، السيئة، حين سألهم عن كتاب "الاسم المئة". يروي كذلك تلك اللحظة وهم يغادرون طرابلس حيث أوقفهم الحارس ليسألهم عن المرأة المرافقة لهم والتي ستكون مذ تلك اللحظة زوجته. إنها مارتا، ظهرت حين اختفى رسمي في أنفة ذات صباح عائداً أدراجه إلى جليل كما أكد بالداसार، وكان أول مبيت لهما في غرفة واحدة في بيت الخياط الذي أصر على استضافتهم لأنهم خلصوه من قطاع الطرق متتبعين إشارة الله كما قال بومة حين قاطعهم غصن الشجرة. بعدها كان

مبيتهم بدير على مشارف حمص، وفي الثاني من أيلول يصل بالداسار وجماعته المعرى وهنالك حيث تنتشر شائعة الكتاب وعام الوحش ونهاية العالم، يضع عجوز كتابا للشاعر الضرير أبي العلاء في يد البطل، الذي بدوره يفتحه عشوائياً ليقرأ إشارة تقول:

يقولون إنّ الدهر قد حان موته * * ولم يبق في الأيام غير ذمام

وقد كذبوا ما يعرفون لانقضائه * * فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

في حلب وفي السادس من أيلول يستعين بقائد قافلة حتى لا يتعرض لهم اللصوص، وفي اليوم التالي في مدينة حلب يكتشف مصلى لجماعة يقبون بـ"نافدوا الصبر" حين خرج متجها لاقتناء زجاجتين من المشروب ولادحقه مجموعة من اللصوص ولم يجد إلا ذلك الباب الذي أدار قفله واندفع بين المصلين مطلقاً شتائماً نابية ساكبا خمرة على سجاتهم، وقد أخبره صديقة اليهودي "ميمون الطليطي" أنهم جماعة تنتظر قدوم إمامها الذي سيهدم العروش والذي سيتعرف عليه لاحقا في الاسكندرية، ليصبا أخوين من الحوار الأول الذي سيجمعهما سوية تحت مظلة *التشكيك*. ولن يتوقف بعد ذلك طيلة القافلة التي سترافقها الكثير من الخرافات والإدعاءات والنصب، وسيعرف الاثنيين حين يقدم بالداسار على الإفصاح لصديقه عن المهمة التي قادته لخوض رحلة إلى القسطنطينية أنهما في المهمة ذاتها تقريبا. فصديقه ميمون كذلك ذاهب بدلا عن والده الطاعن في السن للاستقصاء عن أمر أبناء الحث الذين سيقومون من التراب وعن هذا الكتاب الذي يتحدث عنه المسيحيون موضعا لبالداسار ثقل البحث عن أشياء لا تؤمن بها، ويصف له كيف كان يصلي بورع وكيف تحطمت تلك الأوهام حين اكتشف أن السنة التي تنبؤوا بها ما هي إلا سنة عادية وأن الإشارات التي اعتمد عليها والده لا تكاد تظهر حتى تخبوا، لأن الأمر في نهاية المطاف ليس فناء العالم بل أحداث تحدث منذ القديم، وأن كل هذه الادعاءات تجعله يضحك في قراراته. الشيء الذي اكتشف من خلاله بالداسار أنه بدأ يفقد إيمانه بعقلانيته عكس رفيق دربه.

ويروي لنا الكاتب بطريقة التشويق المعتادة في كتاباته كيف تلقت القافلة في السابع من أيلول خبر انتشار الطاعون على هضبة الأناضول. هذا الأمر الذي اضطرها في الثلاثين من نفس الشهر على الالتفاف حول قونية لتتخاض الوباء، وفي حدائق مرام يدور جدال بين بالداسار وجماعته حول نهاية العالم وعن الاسم المخبوء وعن الكلمات التي تستبدل بالأرقام بدل أن يعرف معناها، الموضوع الذي انشغل به الناس عن دنياهم، فلا توجد محطة يتوقفون فيها إلا وسألوهم عن الأمر ولا يوجد أمر وقع إلا وعرف كإشارة من السماء، غير أن بالداسار وجماعته لم يتوقعوا أنهم لن يكملوا المسير إلى القسطنطينية رفقة هذه القافلة، فبعد أن يصاب بالداسار بوعكة جراء ألمه الذي صاحبه حين اتضح أن الرجل الذي اتهم ابن أخته حبيب بالاعتداء على شرفه باقتراه من ابنته، الأمر الذي جعل الخال يجري معه مقايضة يدفع فيها قطعة ذهبية ليس إلا خدعة وأن تلك الفتاة لم تك ابنته بل هي عاهرة ترافقه كبغي ضمن القافلة، الأمر الذي زاد من حدة أوجاع روحه وعرضه للتقيؤ، فلم يك يعلم أن استسهال تصديقه يؤدي به إلى عزله عن القافلة مخافة أن يكون مصاب بالطاعون، بعدها مكث مع جماعته في نزل سكوتاري ليتعافى من الحمى التي تأججت معه، وكان هذا فراق القافلة وتأكد بالداسار جراء هذه الحادثة أن مارتا التي أعادته من الموت بوقوفها إلى جواره طيلة الوقت هي فعلا زوجته التي سيحزنه تخليه عن كذبة تقديمها كزوجة له فور وصوله إلى القسطنطينية معتبرا أنه على هذه الأرض نستيقظ من الحكايات ويعود كل منهم إلى دوره ومقصده من هذه المدينة، مارتا باهتمامها اليومي مع خادمه حاتم بأمر تلك الورقة التي ستعيد لها حريتها، وهو بذهابه إلى الكنيسة بحثا عن فارس مارمونتيل والذي سيكتشف بالصدفة أنه يحضر حداده بعد أن غرق في بحر إيجة وتتبدد آماله ويذهب عناؤه هباءً، وما إن يقنعه القديس في الكنيسة برمي الأمر فالكتاب الخارق لم ينقد الفارس كما أكد له الشيخ عبد الباسط سالفاً أنه لم يطعم ويغني العجوز إدريس حتى يظهر ابن أخته بومة أمامه

ليطلعها عن مكان الكتاب. وما هي إلا لحظات من المقاومة حتى وجد نفسه عصر نفس اليوم قاصدا بيت جامع الكتب فويفود، هنالك دار بينهم حديث عن الكتاب وعرض عليه بومة ترجمته له إلى العربية لكن فويفود فهم الأمر وسمح لهم بالاطلاع عليه واقتباس منه بعض المقاطع. وما إن انتقل إلى العلية لاحضاره حتى شب حريق مهول في البيت جراء جمرة من غليونه، ليتم بسبب هذه الحادثة التلاعب بالداسار وابن أخته وجعلهما يوقعان على مبلغ كبير يعنى بأملكه لحمايتهما من الأهالي الذين يترصدونهم خارجا كما وأهمهما مرشد آغا، ليتفق الكل على مغادرة هذه المدينة والابتعاد عن الكتاب الذي كلما اقترب منه حدثت كارثة الموت، الغرق، الحريق. قصدوا مدينة سميرنا التي تزعم مارتا أن زوجها قصدها وهنالك ستحصل على ورقة ترميها ويحصل بالداسار على زوجته.

2. الدفتر الثاني : صوت ساباتي

تدور أحداث هذا الدفتر حول "ساباتي" صوت الله في الأرض في مدينة سميرنا التي يقصدها البطل وجماعته بحثا عن رسمي، زوج مارتا، وهنا في هذه المدينة بالذات تبدأ رحلة أخرى دُفع إليها بالداسار على نحو السرعة والحماية، هرباً من شقيق مرشد آغا الديان الذي يلاحقه لتحصيل دين لا يدين به لبالداسار سوى لغبائه الطيب في استسهال تصديق الآخرين. تتوارى له إشارة الخلاص داخل الكنيسة بيرا حين قصدها ليسأل الله الخلاص من أحمال لم يرتكب إثما ليحملها، في دعاء الأب توماس للبحار بالأمان، وعرف بالداسار أنه ثمة سفينة ستقلع في الغد وعليه فوراً أن يكون من ركابها وهذا ما حدث فعلا، وما هو إلا زمن حتى كان مساء على منتهى رفقة جماعته لكن دون دفتره الذي لم يستطع جلبه من بيت مضيفه بسبب الحراس هنالك. حدث هذا في الثلاثين من تشرين الثاني 1665 بعد أن أجلت الانطلاقة بداية بغرض وصول دولاهيه إلى القسطنطينية لاستلام مهامه بعد خمس سنوات

من تعيينه خلفا لوالده، ويعد هذا الحدث بالنسبة لجميع الفرنسيين مهما حيث أنه سيساعد في تحسين العلاقات بين التاج الفرنسي والتاج العثماني الذي لطالما كان كذلك في عهد سليمان القانوني وفرانسوا الأول، لكن السفينة تتطلق في موعده حين يقرر روبولي البقاء في القسطنطينية بعض الوقت ليشرح للسفير الأحداث في غيابه.

وفي دفتره الثاني الذي اقتناه قبل السفر بغية تدوين ما سيطاله في رحلته البحرية التي لم تك سهلة، حيث ترصدتهم العواصف التي كانت تهزّ الأجساد فوق هذا اللامنتهي، وتكبد رؤاهم الضباب حتى ظنوا أن السفينة جاثية دون وجهة، واعتقدت مارتا جازمة أن لا خلاص بعد الآن.. كتب بالداسار مستذكرا السن الثالثة عشرة من عمره حين تخلص نهائيا من أوهامه الدينية، وقتها كان عائدا من الحج حاملا في جعبته الكثير من الحكايا التي لم يدم سكرها طويلا حيث قدم له والده بعد أن استمع إليه كتابا يحوي قصصا يونانية تتشابه مع قصصه التي يعتقد جازما أنها تتعلق بديانته وبالقدسين فيها عن الحج وعن المعجزات التي لم تك إلا آلهة يونانية حدثت قديما مثل إله الطب أسكليپوز اليوناني الذي توجه إليه عدد لا يحصى من الحجاج خلال قرون. الكتاب الشهير بيريجيس أو وصف اليونان والذي كتبه يوزانياس في القرن الثاني من التقويم، وهكذا رمى بالداسار أوهامه الدينية ومخاوفه الأزلية من خوض أي علاقة بامرأة أخرى فور دخول مارتا حياته واضعة حدا لذكرى ألفيرا زوجته التي ارتبط بها في سن التاسعة عشرة ورملته في سن العشرين. ظهر الغسق في الحادية عشرة من كانون الأول وهدأت العاصفة وترخى بومة ليفك هذه الإشارة متسائلا عن موضوع الكنائس السبع التي إحداها سميرنا وجهتهم الآن حيث سيستقرون هنالك بداية في دير الكبوشين، وهنالك سيظهر الرجل المسيح ساباتي والذي سيكون حديث المدينة ومن ثمة حديث القسطنطينية بعد أن يقرر السفر إليها بغية استسلام السلطان لهذا الرجل الذي سيسقط العروش مخلفا وراءه حياة متوقفة عن العمل

بسبب الاعتكاف على الصلاة والدعاء قبل أن ينتهي العالم وبعد أن ينجو من حكم القاضي الذي سيطلق سراحه وسط ذهول البطل وكل معترضيه، مصطحبا معه حاخامات و ثلاث أصدقاء أحدهم سيكون والد ميمون، صديق بالداسار اليهودي، الذي سيلتقيه للمرة الثانية في هذه المدينة بالصدفة وهو يتفرج على موكب ساباتاي الذي كان يغني أغنية حب يونانية ومريده ليحكي له كيف أن والده لم يف بوعده له وراح يبيع كل أملاكهم بأبخس الأثمان حين سمع عن قصة المسيح في مدينة سميرنا، فالتحق به دون تردد ليطلق عليه هذا الأخير لقب الملك كتعبير عن امتنانه لوالده الذي استضافه في حلب ذات يوم حين كان شخصا عادياً.

وفي 17 كانون الأول ينتقل بالداسار وجماعته إلى بيت التاجر الإنكليزي ويلر الذي تعرف عليه وعلى رفيقه القس الهولندي بالصدفة في مطعم الهوغونوتي، المطعم الذي اصطحبه إليه صديقه ميمون أول مرة ثم أصبح بعد ذلك من الأماكن التي يتردد إليها كل يوم، وقد قدمه صاحب المطعم للتاجر الانكليزي على أنهما يشتركان في نوع التجارة، وبينما كانوا يخوضون في آل أمبرياتشي يعرض عليه بيته دون تردد لأنه سيسافر على جناح السرعة لأمر يخص عائلته. هكذا يحصل بالداسار على البيت وغايته دون أن يدري أنه حين كان يبتعد عنها لم يك إلا يقترب شيئاً فشيئاً منها، فما إن يزوره القس الهولندي ذات يوم ليطمئن عليهم وعلى بيت صديقه حتى يصبحا صديقين يكتشف بالداسار أنه متبحر في المعرفة، متحدثين عن الشائعات التي تحوم في أوروبا عن أسباط إسرائيل التائهة والتي ربما ظهرت في فارس وجندت جيشاً لا يحصى عدده ويزعم أنها استولت على الجزيرة العربية وهزمت القوات العثمانية متقدمة نحو المغرب، وأن هذه الأسباط قد انتشرت في فيينا التي تحاصرها قوات السلطان ثم فينيسيا التي منذ ثلاثين عاما في حرب ضد الباب العالي. حين يطلعه بالداسار بأمر صديقه ميمون وعن والده المقرب من ساباتاي يطلب منه موعدا بلقائه وهذا ما سيحدث في بيت القس الهولندي

حيث سيدور حوار مشحن بالتساؤلات بينه وبين ميمون ويروح على إثره بالداسار يتجول بين مقتنيات وتحف هذا القس ليعثر في الأخير بالصدفة على تمثال العاشقان الذي كان قد قدمه كهدية للفارس الذي اشترى منه الكتاب، فيعرف من القس أن ويلر هو من قدمه له كهدية وقد اشتراه مع أغراض كثيرة ومنها الكتاب الذي انتقل به ويلر إلى لندن. وفي اليوم الأول من كانون الأول سنة 1666 يستيقظ الكل على سنة عادية بعد أن ساوت بالداسار الشكوك الكثيرة عن احتمالية نهاية العالم رابطا كل تلك الإشارات التي حدثت معه، وراح يردد أنه ما من تفسير لظهور ساباتي في هذا الوقت بالتحديد في هذه المدينة التي سماها يوحنا واحدة من الكنائس السبع المعنية في المقام الأول في رسالة الرؤيا، وفي يوم الأحد المصادف للثالث من سنة 1666 يستبسل الواعظ في كنيسة الكبوشين ضد من يعلنون نهاية العالم ومن يفسرون الأرقام وضد كل من يستسلم للخديعة ويؤكد أن العالم الذي بدأ مثل كل الأعوام ساخرا من مسيح سميرنا. أما في الثامن من كانون الأول يكتشف بالداسار أن زوج مارتا لازال على قيد الحياة حين يستدعيه الموظف العثماني الذي كلفه بالبحث في هذه القضية عبد اللطيف ذات يوم ويطلعه عن الأمر، فيقود بالداسار المرأة التي أحباها والتي قطعت كل هذه المسافة لتثبت أنها أرملة إلى زوجها في جزيرة تشيو، ومن هنالك إلى كاناراكتيس حيث أخبرهم دارغو الذي استعانوا به للمهمة هنالك أنه يقيم بها. في تلك الجزيرة تختفي مارتا خلف باب السيف تاركة بالداسار لشكوكه وآلامه الطويلة المتعلقة بأمل ظهورها مجددا وابنه الذي في أحشائها من خلف تلك الباب مجددا.

3. الدفتر الثالث : سماء بلا نجوم

يغادر بالداسار جزيرة تشيو محملا بالكثير من الأسى والضياع، وحيدا بلا خادمه حاتم ولا دفتره الذي تركه ليحف في الدير. لقد صفدته آخر محاولة له للاستعلام عن مارتا، فبعد أن اختفت خلف باب زوجها رسمي لم يجد إلا أن

يدعي بأنها قتلت ويطلب من الضباط أن يرافقوه، وهكذا سار الأمر بعد أن قبض هؤلاء أجرا لتعاونهم، وما إن دخلوا البيت رفقة بالداسار حتى اكتشف أنهم أصدقائه، بعد أن فهم أن من قادهم إلى بيت رسمي والذي ظهر على الجزيرة كان ليس إلا مرسلا من رسمي ليستدرجهم بكذبة زوجه من ابنة تاجر غنيّ، الفخ الذي وقع فيه بالداسار والحماقة التي جعلته الآن يقف في بيت رسمي يتبادلان الحديث على أنهم أقارب. حين يفقد البطل سيطرته ويؤكد جراً غضبه أنه ثمة شيء ما بينه وبين مارتا، سينقل بعد أن يغادر سليما من بيته من طرف نفس الضباط إلى الحجز ومن ثمة وبمبلغ مالي لينقذ حياته يُحمل على سفينة البحار دومينيكو وهو عجوز يقارب الستين من عمره، والذي سيطلعه أثناء رحلتهم إلى جنوة موطن أجداده عن عمله في تهريب صمغ المصطكي الذي خصصته السلطات العثمانية بكامله لاستعمال حريم السلطان..

في الخامس من نيسان يسرد الكاتب لحظة وصوله إلى جنوة التي لم يجها أحد كما أحبها جنويّ من الشرق فيراها واقفة إذا سقطت وجميلة إذا قُبّحت ومزدهرة وسيدة إذا أفلست وأهينت، وستجمعه الصدفة من على متن هذه السفينة بالتاجر غريغوريو صاحب السلعة المهربة، ليكشف له حين يقدم نفسه عن عائلة آل أمبرياتشي بأنه لازال يَكنّ لهم الكثير من الاحترام والوفاء، فعائلته آل منجيفاتشا كانوا في السابق من العشيرة التي تديرها عائلته، وأنهم الحلفاء التقليديون لهم، ومن هنا استضافه كصاحب بيت وبطل هرب من الجنود العثمانيين. وبعد مرور عشرة أيام في مدينة جنوة التي اعتبرها فترة للنقاها، يتنقل مع غريغوريو في المدينة قاصدين الميناء ومن هنا يعبر به على ساحة القديس ماتيو التي يوجد بها قصر دوريا، ثم أبراج آل أمبرياتشي العالي المربع، محاولاً تقديم له تاريخه الفاخر في هذه المدينة، في حين لا يشعر بالداسار أمامها إلا بالحنين وعتب على وجوده في المكان المناسب في الزمن غير المناسب.

في الثامن من نيسان يستدين من مضيفه ثلاثمئة ليرة ويصّر على رد الدّين بتاريخ نيسان 1667، وفي التاسع من نيسان يخبره مضيفه عن عائلته كبداية جادة في التقرب، وكيف انتقلت زوجته مع أولاده إلى قصر آخر مخافة

من أن يقض صومها الكثير ويفسد عفة الطاعة، هو الذي يشاهده بالداسار في الكثير من الأيام يعود منتشياً جراء ارتكابه لأشياء مماثلة معتقدا أنه لا يجب ارتكاب الخطايا تحت سقف هذا البيت المبارك، وسيطلعه الأخ إيجيديو الذي يعرفه به غريغوريو ما وقع لساباتاي حين وصل إلى القسطنطينية. فلما وصل ومن معه إلى بحر مرمرية اعتقله الأتراك قبل أن يدنو من الشاطئ وبينما راح مريدوه يكون وينزعجون طمئنهم بأن آذانهم ستسمع قريبا ما لم تسمعه قط مما عزز ثقتهم، فبعد أن أقتيد للصدر الأعظم أقوى رجل في الإمبراطورية ظنا من أنه سيستقبل بالصفح والتوبيخ على ما يدعي أنه فاعله بالسلطان وعلى الخسائر التي تكبدتها مدينة سميرنا جراء تحريض الناس على عدم العمل، أحسن الصدر الأعظم استقباله وطلب من حراسه فك وثاقه وأجلسه وتحدث إليه بصبر عن أشياء مختلفة، وأقسم بعض الأشخاص أنهم رأوهما يضحكان، وأضاف في استعجاب الأخ إيسجيديو أن الصدر الأعظم أمر بحجزه في القلعة حيث يسمح له باستقبال مريده من الصباح إلى المساء وبالصلاة والغناء معهم وبتوجيه المواعظ. وأضاف أن المسيح الدجال ساباتاي يطلب من الجنود أحيانا لأخذه إلى الشاطئ ليمارس طقوسه، وأن الصدر الأعظم خصص له خمسين اسبرا تدفع له كل يوم حتى لا ينقصه شيء، لكن كل هذا لم يدهش بالداسار فقد شاهده سابقا يخرج من مقر القاضي كما دخل ودون أن يمسه أحد بسوء، وراح يعبر الحشود في مدينة سميرنا مواصلا غناؤه يتبعه مريدوه. وبعد أن يرفض بالداسار عرض مضيفه غير المباشر الزواج من ابنته جياكومينا للمرة الثانية بعد أن يصيبه الهلع من الحرب المحتملة فسفنه السبع في البحر تتعرض مباشرة للمعركة بين الأسطول الفرنسي والهولندي من جهة وبين الأسطول الإنجليزي من جهة أخرى، معتبرا لنهاية العالم يرواده أمر الرحيل من مدينة جنوة، ويطلع غريغوريو في 18 نيسان، يوم عيد الشعانيين بكل ما تكبده وما جعله يصل إلى

هنا على غير حسابان مستشعرا في داخله جحودا تجاه هذا الرجل الذي آواه وأطعمه، ويفهم الأخير أن بالداسار يفكر في الرحيل طالبا منه البقاء حتى عيد الميلاد، وقبل ذلك يفكر البطل في اقتناء شيء لمضيفه معبرا عن امتنانه لاستضافته كهدية. فيقصد محل تاجر يبيع أشياء طريفة والذي سيتعرف على اسمه فور ما تعريفه بنفسه فالتجار تناقلوه، هنالك يستعيد ذكرى محله في جبيل، نفس الأمور هنا وهنالك، وفي حديثهما يعرب التاجر عن تلك الرغبة الجامحة في داخله للقيام برحلات لكنه لا يستطيع، يحدثه عن ذهابه مرتين في اليوم إلى الميناء حيث يقف ليراقب السفن التي تغادر أو التي تصل، يكلم البحارة وأصحاب السفن، يذهب لتناول المشروبات معهم في الحانات لكي يصغي إليهم وهم يلفظون أسماء المدن التي توقفوا فيها. لقد كانت تنقصه حكمة الجنون ليقوم بالسفر، حتى رأى بالداسار في عينيه رجاء لو تبادلا الأدوار، وكان يقسم بالداسار في داخله أنه حقا يتمنى لو يحدث ذلك، ولو أنه الآن في محله يشرب كأسا باردة.

في 23 نيسان ينتقل بالداسار للإقامة في فندق جراء معاملة السيدة أوبيتينا السيئة له بعد أن يتسحب صبيحة الجمعة من غرفته حيث سيلتقي بابنة مضيفه تير له الدرج بشمعدان وتقوده حتى الباب متبادلان ابتسامات رقيقة، أوبيتيا التي أتت قبل يوم الخميس بعد أن كان مقررا أن لا تعود قبل السبت، لكنها تحدث شبق زوجها بيومين وكانت في البيت على غير المتوقع، حيث أظهرت امتنانها لمغادرته للبيت فورا من تصرفاتها حين راح يلقي عليها التحية لحظة وصولها، ورغم قدوم صديقه غريغوريو في اليوم التالي إلى غرفته في الفندق مترجيا إياه العودة رفض بالداسار ورأى أن فيها إهانة أكبر لكنه وعده بعد أن شاهده يبكي كما لم يبكي رجلا يوما أن يتناول وجبة الفصح معهم.

يروى بالداسار كيف تم نقل تمثال باخوس من محل التاجر بعد أن أخبره أنه يصعب أن يجد حمالين في هذا اليوم تحديدا، لقد عاثوا في حديقة مضيفه فسادا، وقد عرف سالفا غريغوريو أن بالداسار ينوي أيضا زيارة لندن

لهذا حمله رسالة منه إلى غابيانو لو مروا على لشبونة، وأخبره أنها هامة فإن لم يجده يحرقها مباشرة دون أن يطلع عليها. كان هذا ليس ببعيد ففي 26 من نيسان 1666 يصعد بالداसार على متن السفينة ساتكتوس المتجهة إلى لندن دون أن يعرف كيف دفع نفسه للقيام بهذا الأمر، لقد وضع في سكة لندن حين فتح بحار أشقر غرفته بعد أن كان يجيل نظره منذ قليل من نافذة الفندق سائلا إياه لاهثا إن كان يريد الذهاب إلى لندن، وكانت مشيئة الله أن يسوقه باتجاه مبتغاه حيث وقف يبادل التلويح للتاجر بالدي الذي يقف على الرصيف بمنديله الأبيض مودعا إياه.

بعد أسبوع من الإبحار وبعد أن تقدم نحوه طبيب السفينة ليتأكد هل هو حقا صهر السيد غريغوريو الذي نفاه بالداसार، يقرر القبطان أن لا يتوقف في نيس ولا مرسليليا والمضي مباشرة باتجاه فالنسيا بأقصى سرعة بحجة الرياح الشمالية، الأمر الذي جعلهم في تيه إذ لم تصل إلى أي وجهة ولم ترى ساحل، حيث يزعم بالداसार أنها فعلا الكارثة التي يمضون نحوها بأقصى سرعة، فبعد أن عرف من القبطان سنتوريوني أن أبالسة يتبعونه فيضطر إلى تغيير وجهته أقلقه هذا الأمر فالقبطان يعاني من وسواس الطيور الذي يجعل منهم مترقبين له، ويفهم أن التاجر البندقي جيرولامو والذي سيصبح صديقه على حق حين قال أن القبطان الجيد يحول الأطلسي إلى متوسط، والقبطان السيء يحول المتوسطي إلى أطلسي، والذي سيدعوه ذات مساء إلى عشاء ويكشف له الغرض من رحلته. لقد كان في مهمة لتجنيد الحرفيين الإنجليز لكي يذهبوا ويستقروا في موسكو بتشجيع وحماية من القيصر ألكسي. وفي 13 أيار يؤكد جيرولامو لبالداसार أن لملك فرنسا مشروعا لاجتياح الأراضي العثمانية وقد جهز خطة لأجل ذلك، وأفهمه أنه دخل حتى في محادثات مع حكيم فارس عدو السلطان الكبير لكي يثير الاضطرابات في تاريخ متفق عليه من أجل اجتذاب الجيش التركي نحو جورجيا وأرمينيا وأتروباين، وفي هذه الأثناء يستولي الملك لويس بمساعدة البنادقة على كاندي وجزر إيجة والمضائق وربما

الأرض المقدسة وبعد أن أدهشت بالداسار هذه الثقة التي جعلت صديقه يبوح له بكل هذه الأمور، انتابه شيء من الرهبة والخوف من هذه الحرب التي ستجلب لأهله الويلات من السلطان بما أنهم سكان باب الشرق لو ألقوا بأنفسهم مع البنادقة في مشروع متهور كهذا. وللصدق يتعرف على أمير فارسي على سطح السفينة ويكون معه أيضا صداقة حميمة يدعى أصفهاني والذي يبدي اهتماما جادا حين يحدثه عن سميرنا مؤكدا أنها أزمير الاسم التركي للمدينة وبأمر ساباتي الذي أثار فضوله جدا، وأراد معرفة كل شيء يخصه، وقد دعاه أصفهاني أيضا إلى قصره المجهز على السفينة على الطريقة الفارسية، وكان يعلو المكان زرابي فارسية ممدودة وكل شيء يخص هذه الثقافة. جلسا تبادل الحديث طويلا وأخبره أصفهاني عن النجوم المنطفئة نهائيا والتي تختفي عن الأنظار وأنه مع مرور الوقت ستصبح السماء سوداء، الأمر الذي يجعل بالداسار يراقب هذه الحركة طيلة الليلة لكن دون جدوى، والأمر الذي سيضحك صديقه البندقاني كثيرا وكذلك لو كان مكانه ميمون، فهذا الرجل يشبهه تماما نفس السخرية من الخرافات وشائعات نهاية العالم، وكيف يعرب البطل عن أهمية هذه الإشارات التي نقلته باتجاه خطط لم يكن يدعيها، متسائلا دائما ماذا لو تحقق نبوءات الناس وكانوا هم على حق؟ يعاني من أسئلة يعرف أنها باطلة لكنه لم يستطع التخلص منها ومن ملاحظتها له، لقد تاه بين القلب والعقل، خاصة حين كلمه عن بعض الموسكوفيين الذين يسمون الكابيتونيون وما يقال عنهم بأنهم يتطلعون إلى الموت لأنهم مقتنعون بأن المسيح سيعود قريبا، فيتساءل في حيرة ممزوجة بالتخاذل عن إمكانية موت كل هؤلاء لأجل لا شيء، بينما يرى البندقاوي صديقه أنهم لا يستحقون سوى الشفقة التي هي قشرة الاحتقار، وشبه بالداسار الأمير الفارسي ببومة ابن أخته، فله نفس النظرة تجاه الأمور ونفس التفسيرات.. حين دار حديثهما يوم 20 أيار عن الاسم المخبوء الفائق الوصف وكيف يرى أنه لا يجد تعدي في أن يطلق على ساباتي، فما إن يفعل الناس ذلك حتى ينالون

الخلاص، فهذا الاسم يعجّل في حكم السماء وعن الجدل الذي تحدث عنه الكتاب الذي اختص في تفتيت الآيّة "فسبح باسم ربك العظيم"، والتي ينقلب معناها كلما أسندت صفة العظيم للاسم أو الخالق، وعن كيفية الكشف عن اسم مخبوء ما بعد 99، مفسرا له الجدل القائم منذ قرون والاجتهادات المتواصلة في القرآن أو مختلف الأقوال المنسوبة للرسول للعثور على ما يساند فرضيتهم أو يطعن فرضيات أخرى. هذه الموارد التي أوردتها الأمير في شروحه كشفت على أنه مطلع على كتاب المازانداني العلامة البغدادي الذي كان يمارس الخيمياء ويكتب بأبجديات سحرية ويدرس علوم السحر والتنجيم، الأمور التي جعلته يقول عنه أنه لم يك جديرا بالاحترام، ورغم هذا كان له أتباع كثير، حيث كان بيته لا يخلو من الناس، وقد زرع حجة قناعات راسخة وأيقظت شهوة العلماء والجاهلين على حد السواء، فالآية رهن التفسير فهمت فهمين مختلفين، الأمر الذي يضع الله في التباس.. ويصر الأصفهاني على أن الله الذي كرر هذه الجملة ثلاث مرات لم يكن هذا الأمر عن رعونة ولا تهورا ولا سهوا ولا استخفافاً باللغة وإذا فعل ذلك فإنه فعله لقصد ما. وبعد ثلاث ساعات من الحوار يقرّ أصفهاني أن الكتاب نسخة مزيفة لأنه ما من أحد يؤكد أن المازانداني كتب الكتاب فعلاً.

يُشعرنا الكاتب عن طريق بطله أن الله عوضه عن أهله بنسخ منهم، فلا بد أن يخسرهم في طريقه إلى لندن، يحدث هذا حين تصل السفينة لشبونة بعد أن تتوقف في طنجة، هنالك حيث يلتقي بالسيد ماجلان الذي سيدعوه رفقة صديقيه للعشاء في بيته، محدثهم عن ميناء هذه المدينة التابع منذ وقت قليل للتاج الإنجليزي بعد أن خضع طوال قرنين للبرتغال، وحين تزوجت كاترين دو براغانس من الملك تشارلز قدمت له موضعين بمثابة مهر أحدهما هذا الميناء والثاني مدينة مومباي في الهند؛ الشعور الذي تقاسمه معه بالداسار كجنوي وهو يحيي عن ألمه حين تنازل البرتغاليون عن طنجة للإنجليز، وفي لشبونة الثالث من حزيران رافق بالداسار الأمير لرؤية اليسوعي البرتغالي فييرا،

الذي رفض الأب آنج القائم على ترجمة الحوارات التي تدور بين الأمير ومن يُحدثهم، الذهاب برفقته مدعياً أن هذا الأخير مجرد زنديق، لكنهم علموا أنه قد أودع السجن بأمر من محكمة التفتيش.. يلتقي بالداسار بغابيانو ويعطيه الرسالة ثم يكتشف أن مضمون الرسالة هو إعطائه مبلغاً مالياً ليحمله في عودته إلى مضيفه في جنوة، وفهم أنه يريد منه أن يعود بأي طريقة، لكن غابيانو حين يعلم أنه متجه إلى لندن يأمره بالأداء فالحرب قائمة بين الإنجليز والبرتغاليين هنالك، وحين نقل الأمر لقائد السفينة وأخبره أن غابيانو طلب منه أن يكلمه لم ينتبه بالداسار أن معنى اسمه هو "نورس"، أحد الأبالسة الذي يظن البحار أنهم يترقبونه، الأمر الذي جعل القبطان يبحر دون أن ينتظر حتى من لم يلتحقوا بعد بالمركب وكان صديقه من ضمن أولئك الذين تُركوا في لشبونة، بينما راحت السفينة سانكتوس تشق طريقها منذ ثلاثة أيام على تلك الحادثة متجهة نحو الغرب مباشرة. ويوم السبت 26 حزيران تتقدم سفينة هولندية نحوهم ويصعد جنودها إلى متن سفينتهم ليضعوا عليها أياديهم ويقودونها إلى أمستردام، بلاد الأحرار الذي لطالما حدثه عنها صديقه ميمون، هذه البلاد التي سيدخلها أسيراً، هنالك ستفتش السفينة وتنزل الحمولة التي كانت بالأصل ينقل أغلبها إلى تاجر هولندي، من ثمة أبحرت السفينة باتجاه لندن. وما إن رست حتى توجه بالداسار إلى محل ويلر، كان قد أخبره القس كوانن أنه قريب من كنيسة القديس بول، وهنالك قابلة والده بعد أن أخبره بسفر ابنه، وبعد سؤاله عن الكتاب وتردد الوالد في الإجابة يعرف أنه بيع لكنسي، أخبره جوناس العامل بالمحل الذي أقر بالأمر بعفوية أن الكنسي مرشد خدم في جيش كرومويل الذي حاول الإطاحة بعرش المملكة وقاد العصيان، وقد استعجب بالداسار حين قاده هذا الأخير إلى بيت بيرة بدلا من كنيسة حيث كان يقيم في العلية كما أخبرته بيس، صاحبة المكان، وحين وجد نفسه في غرفة الكنسي روى له كل ما تعلق بهذه الرحلة التي قادتته إلى هنا، فأخبره أن الكتاب هنالك وراء الستار خلفه مباشرة حيث وجده فعلا بالداسار

كأي كتاب عادي على رف مهترئ بين الكتب والصواني. واشترط الكنسي لأخذه على بالداसार ترجمته أولاً، فقبل دون تردد وبدأت رحلة الترجمة، لكنها فوراً ما باءت بالفشل، فما إن يفتح بالداसार الكتاب حتى يصاب بالعمى، وكان في كل مرة يؤجل الأمر تذرعا بإصابته بداء الشقيقة. لم تبد الترجمة تقدماً حيث يصعب عليه الرؤية بعد صفحات فقط، ولم يجد حيلة سوى في نقل ما كان يحكي له الأصفهاني عن ما ورد فيه، وسيعرف قبلاً من بيس ما خلفه الطاعون في هذه المدينة وكيف هاجر المسؤولون والأغنياء تاركين الفقراء لمواجهة مصيرهم، وكان الكنسي واحد من أولئك الذي يستطيعون فوراً فعل ذلك لأنه لم يك معدماً، لكن بقي يجتاز الشوارع وحيث توضع إشارة على أبواب المصابين يدخله ليطمئن المصاب ويقويه ولا يخرج إلا بعد شعور المريض بتحسن جاعلاً منه يضحك. كانت بيس تشبّهه بالأب الله الذي يمشي في هذا الوباء ليمنح الضعفاء السلام، لقد شاهده يفعّل الأمر ذاته حين زار أختها، لكن ما إن تلاشى الطاعون حتى أطلقوا إشاعة مردّها أن الكنسي كان سبباً في نشر الوباء، فاعتقل لأسبوع على ذمة التحقيق وحين أطلق سراحه وجد بيته قد احترق. فقد قامت مجموعة عصابة بإحراقه باحثة عن جروح دواء الإشاعة الأخرى التي أطلقها الناس مؤكدين أنه يملك دواء سرّي يسمح له بالبقاء حياً، وأرادوا إكراهه على مغادرة المدينة لكن بيس قدمت له المأوى. في 12 أيلول يحدث حريق مهول بلندن، ينتشر بسرعة أكلاً البيوت، حتى ظن أنها نهاية العالم تحت سماء خالية من النجوم، وتنتشر مع هذا الحريق أن البابوان رجلاً المسيح الدجال هما من قاما بكل هذا فأصبح الغرباء في المدينة متهمين وعلى بالداसार أن لا يفارق غرفته مخافة عليه من هؤلاء الغاضبين الذين سيقتلونه دون تردد. لقد منى نفسه أمام هذه الحرائق التي تزداد أن يستطيع الكتابة مثلما استطاع نيرون الغناء ولكن الأمر بدا صعب عليه، وحين استأنف المفتشون تفتيش البيوت عن المذنبين الغرباء المختبئين، انتابه شعور مرير: لقد كان أينما حل في هذا العالم يشعر أنه مذنب حتى في أمستردام أرض

الأحرار، وقد تساءل طويلاً عن كيفية هلاكه وهل سيكون بواسطة النار أم بواسطة العامة؟

4. الدفتر الرابع : إغواء جنوة

في جنوة، السبت 23 تشرين الأول 1666، يبدأ بالداسار في كتابة ما لحق به في طريقه مجدداً إلى جنوة. في دفتر رابع أخاط أوراقه بعد أن فقد دفتره الثالث في لندن متمنياً أن لا يكون قد أحرق.

بعد أن تلتهم النيران الكثير من لندن واقترب الخوف من بالداسار، خوف من نهاية العالم، خوف من أسنة اللهب المنفلتة، خوف من الحشود العامة المنفلتة، وخوف مما يمكن أن تعنيه المأساة التي حلت في اليوم نفسه الذي عينه الموسكوفيون يوماً لنهاية العالم، لم يكف عن مناقشة الكنسيّ عن تلك النبوءة وبعد أن خبئته بيس وحمته وأطعمته وطمأنته جاءت في اليوم الثالث للحريق لإخباره بأن عليهم إيجاد مخرج لأن النار كانت تقترب أكثر وأكثر وبات الآن في مقدورهم الانسلاخ بين الجنونيين لكي يركضوا باتجاه الجسر، ويصعدوا على متن أول زورق لبيتعدا عن الأتون. وكان ذلك ما حدث فبعد أن ارتدى زيا إنجليزيا وأوصته بيس بعدم النطق بكلمة ولا النظر في عيون الحشود، قطعاً لندن عبر أزقة لا تعد ولا تحصى إلى أن وجد بالداسار نفسه في المكان المطلوب، هنا أمام السلم الذي يقال له "أيرون غيت ستريز أو سلم البوابة" مع ما يقارب الأربعين شخصاً ينتظرون الزورق، هنا حيث يشهد وداعاً على طريقة مخلصه.. لقد لامست بيس أصابعه ثم تراجعت: كانت علامة وداع، وكان هو يدعوها للصعود لكنها ترد بلا. خرج بالداسار من لندن يحمل في حقيبته الكتاب الذي جاء من أجله والذي فكر في سرقة من الكنسي لكن هذا الأخير استدعاه قبل أن يغادر وقدمه له كما تواعدا منذ المقابلة الأولى لأن الكنسيّ أخبره قائلاً أنه عرف ما كان يجب عليه معرفته. وعلى بعد مسافة قصيرة أنزل صاحباً الزورق الناس كرد عن احتجاجهم وأخبروهم أن عملهم

يقتصر على إبعادهم عن الحريق، وعلى الرصيف الذي تركوا فيه يتعرف على غريب مثله مختبئ في صمته وتجنب النظرات: إنه جورج الذي أعطى نفسه لقب كاميناريوس، وبعد انتظار دام ساعة أتيحت لهما الفرصة أكثر من مرة لكي يشيرا بأذرعهما باتجاه زوارق عابرة، أخيرا اقترب منهم مركب صغير وعليه قادتهما الرحلة إلى السواحل الفرنسية، إلى كاليه مباشرة.

لقد عاد بالداसार أدراجه إلى جنوة وضيافة منجيافاتشا، في حين افترقوا سابقا دون ونام كبير، ويلتقي بقبطان السفينة التي نقلته من شيو وإلى ذات صباح دومينيكو، وسيعده بالداसार أنه يوما سيذهب معه وينزله في المكان الذي أخذه منه، وسيتدبر هو بعدها ما يتبقى، وما إن سمع صاحب السفينة هذا حتى أخبره بأنه سيقلع بعد ثلاثة أيام، وسيرافقه بالداसार بعد أن يكون قطع وعدا لغريغوريو وهو ثمل واضعا يده على الإنجيل أنه سيتوجه مع دومينيكو إلى شيو، وإذا لم يفلح في انتزاع مارتا من رجليها، فسيتخلى عن اللحاق بها، ثم يمر إلى جبيل لإصلاح بعض أموره وتسوية ما يجب تسويته وبيع ما يجب بيعه وتسليم تجارته لابني أخته وفي النهاية يعود في الربيع ليقيم في جنوة ويتزوج من جياكومينيتا في احتفال كبير بكنيسة الصليب المقدس، ويعمل مع الشخص الذي أصبح والد زوجته. في 27 تشرين الأول وصل المركب إلى مشارف تشيو، وبدأ دومينيكو يشرح له كيف تتم العملية، سيمضي رجلان تحت جناح الظلام في زورق إنقاذ نحو الجزيرة، وعند وصولهما إلى قرية كاتاراكتيس سيتصلان بالممول المحلي الذي يكون قد جمع البضاعة في بيته إذا سار كل شيء كما متوقع: المصطكي جاهزة ومعبأة في رزم وتم إقناع رجال الجمارك بغض أنظارهم وإذا لم يتم الاشتباه بفخ، سيعلم رجلا الاستطلاع دومينيكو بوساطة إشارة متفق عليها، ملاءة بيضاء تبسط في مكان ما مرتفع ساعة الظهيرة، وعندما يستعد المركب للاقتراب من الشاطئ عند هبوط الليل نحمل وندفع ثم نبتعد مع خيوط الفجر.. وإذا لم تظهر الملاءة وإذا لم يريان الرجلان عند فجر الأول يبتعدون وهم يصلون لروحيهما. هكذا كانت

الخطة دائما تسير بدون بالداسار لكن الأمر اليوم مختلف وفيه إضافات أخرى. في 29 تشرين الثاني بعد أن تمت الأمور على أكمل وجه، وقبّل صالح بائع المصطي دومينيكو وقدمت له المساعدة للنزول من العبارة، ظن بالداسار أنهم سيبحرون وحين سأل أحد البحار عن عدم إبحارهم بعد أخبره أن ديميتريوس لم يأت بعد، وأنهم في انتظاره، ولم يلبث الوقت كثيرا حتى رأوا مصباحا على الشاطئ وثلاث رجال يقتربون. إنه رسمي وتابعه، أخبره دومينيكو أن يختبئ بعيدا وبعد أن صعد رسمي ومن معه إلى السفينة فهم أنه أوقع به وأبحرت السفينة بهم، وهنا على ظهر هذه السفينة دار حوار واتفاق بين رسمي ودومينيكو وخادمه على مسمع بالداسار بأن يجلب مارتا إلى المركب لتؤكد كلام رسمي الذي أخبره بأنها ليست حاملا ولا يملكون أي طفل وهي زوجته. نُفذ الاتفاق وفي 30 تشرين الثاني صعدت مارتا المركب، بينما تمنى بالداسار في تلك الليلة قتل رسمي، بل دوّن هذا الأمر وفي الصباح راح يشعر بالسوء جراء ما كتب، هذا الصباح نفسه الذي سيستدعى فيه إلى حجرة دومينيكو مع مارتا ورجال دومينيكو ليسمع أقوالها، وهناك جرى حديث طويل واكتشف بالداسار أنه لم يك ثمة طفل بالأساس، وأخبرتهم مارتا أنها أخطأت في الأمر وأنها امرأة لا تنجب. لقد جرح بالداسار عميقا وأهين وهو يحاول إخبارها أن الأمر إن تعلق بتهديد فإن دومينيكو لن يسمح بأن تتأذى لكنها أكدت أنها لم تك حامل و أطلق سراحا مع زوجها بعد أن أجابت حين طلب منها دومينيكو الاختيار العودة إلى القرية في جزيرة شيو أو القدوم معهم ومع بالداسار. كان الأمر أشبه بكابوس، جعله يشعر أن عقله انزعج كما انزعج كتف والده سابقا، وأنه في حاجة لصدمة قوية تعيده إلى رشده بعد أن فكر أنه في إمكان غريغوريو أن يدفع لكل هؤلاء للتمثيل عليه حتى يترك المرأة التي يحب، لكن دومينيكو أخبره لاحقا بتخيل أن المرأة قالت ما يود سماعه، وبأنه لا يكفي تمنى الموت لغريمك بل يجب قتله وسأثلا إياه هل كان في إمكانه فعل ذلك؟ هل سيستطيع العيش مع هذه الجريمة التي

لطخت روحه، ثم قال: "كن سعيدا إذن بأن هذه المرأة لم تنطق بالكلمات التي تنتظرها"، في الغد، أعاد كلام صديقه ووجده صائبا فبالداسار ولد تاجرا ويملك روح تاجر وليس روح قرصان وروح محارب ولا روح رجل شرير، وربما لهذا فضلت مارتا عليه ذلك الرجل الذي ما كان ليتردد في القتل للحصول على ما يريد، ويعزي بالداسار نسيانها الواجب لخيانتها التي لا يلبث يشك في أنها ليست حقيقة وماذا لو كان الجميع يكذبون عليه؟

لقد كانت عودته إلى جنوة هي عودة لا يمكن بعدها الذهاب إلى جبيل، الأمر الذي تجنب كتابته، محاولا تكذيبه، كانت هذه الفضاعة تقتله لأن في جبيل أخته الحبيبة وتجارته وقبر أبويه والبيت الذي ولد فيه وولد فيه والد جده.. لكن غريب فيها كيهودي ويعزي ذلك في أن مدينة جنوة تعرفت عليه مذ أول يوم، وكيف كان مضيفه في إرادة تامة بأن يكون صهره حتى اقتنع بالداسار أن هذا الرجل يريد شراء اسمه وأنه عمل طوال حياته لأجله وكون أعماله لأجله، سلح سفنه لأجله وقد زرع وسقى وقلم وعالج كي يأتي بالداسار ويقضم الثمرة الناضجة، موضحا أنه وبينما يبني أسرة واسم في جنوة يكون قد حفر قبراً لسلالة أكثر عزا في جبيل، أسست بدايات الحملات الصليبية.

وفي أحد الصباحات جاء مضيفه لغرفته لأول مرة ليطلب منه الوعد الذي قطعه وأمهلته حتى المساء، مخبراً إياه بأنه سيتقبل رده مهما كان، وحين يغادر ينظر إلى كل ما اعتلته وها هو هذا الكتاب الذي لاحقه لعام معه في نفس الغرفة لكن فقد الرغبة فيه، حلم بامرأة فضلت عليه قاطع طريق شرير، سود المئات من الصفحات ولم يبق منها شيء، لكنه ليس تعيساً.. يقر ها هو الآن في جنوة ينظر إلى حياته الخاصة والعالم وكأنه غريب عنهما. في 31 كانون الأول وبعد أن شفيت زوجة مضيفه وعلم بالداسار بعد وصول رسالة من أخته أن بومة وحبیب عادا إلى جبيل، وأن أهل حاتم قلقون بشأنه لأنه لم يعد بعد، وأن أغراض وصلته من القسطنطينية ليتأكد أن مضيفه بارينيلي أرسل أشياءه، يقرر غيريغوريو إقامة حفلة في المساء يقول أنها

لشفاء زوجته، لكنها إعلان للخطبة أيضا. وعند منتصف الليل بينما كان الكل مجتمع حول المدفئة سمع صوت كالصاعقة ينزل وكأنما صخرة فجرت لتوها، وتعالق المخاوف وركعت زوجة المضيف تمتت بالدعوات، في حين راح لسان لهب من النار يندفع من المدفئة ويسقط على خروف للزينة هنالك على مقربة منهم وما إن قرر بالداسار الذهاب لإحضار الكتاب ناداه مضيفه ليساعده في إطفاء الحريق وهكذا كانت نهاية عام الوحش بتلك الطريقة المضحكة وهما يرقصان بأقدامهما محاولان إطفاء ما تبقى من النار، إنها نهاية الخرافة كما يقول بالداسار واعدأ نفسه بعدم فتح الكتاب مطلقاً.

في الأول من كانون الثاني 1667، العام المسمى بعام الوحش انتهى، يوم مشرق في مدينة أجداده جنوة يشعره بحبور وهو ينظر في الشمس مثلما فعل فرانسوا داسيز قائلاً: "يجب أن يتهج كلما راحت تضيء من جديد علينا"، لقد اقتنع بالداسار أن الأعوام ستستمر وما على الإنسان إلا أن يحيها، فالسما لم تنطفئ، والمدن لم تدمر، لم تدمر جنوة ولا لندن ولا موسكو ولا نابولي، علينا أن نعيش في الأرض يوماً بعد يوم مع شقائنا البشري مع الطاعون ودوار الحروب وحوادث الغرق، مع قصص حبنا وقصص جراحنا، فلن تأتي أية كارثة ربانية رائعة ولا أي طوفان مهيب، ليغرق فزعنا وخياناتنا، فرغم حصول بالداسار على الكتاب إلا أنه لازال مغلقاً بالعمى، هو الذي يخبؤه رغم أن الكتاب لا يخبئ شيئاً ليكتشفه، لقد كانت الطريق إلى هذا الكتاب ليست إلا طريقاً باتجاه أرض الأجداد جنوة.

5. صناعة المعتقد الوهمي

ينبري أمين معلوف في هذه الرواية المشوقة ليجيب عن سؤال جوهرى هو: هل على الإنسان دائماً ترك المعلوم مقابل اللامعلوم، أم أنه من الواجب التمسك بالمعلوم لاستدراج اللامعلوم؟
تدهور الحياة الإنسانية في اللحظة التي يصنع فيها الإنسان زمناً نهائياً لحياته، فيتحول من فاعل بالزمن إلى مفعول به من طرف الزمن، ومن كائن

حركي الروح والجسد إلى كائن راكد ومترقب. ولطالما سوّقت الديانات أحديثها عن النهايات الكونية وتنبأت من الأعراف بتواريخ تضمحل بحلولها البشرية، وراح الإنسان فيما يصدر له من ترويع يتراجع عن الحياة الممكنة والمضمونة مقابل حياة أخرى لا يثبتها إلا المقدس، متنازلاً عن أدواته الحياتية مقابل الحصول عن بدائل متشابهة أو أكثر غرابة منها في الآخرة لكنها مضاعفة.. لكنه ينسى أن يتهدى الاحتمالات النافية، فماذا لو لم تك ثمة حياة أخرى وتكون قد استنفذت حياتك لأجل فكرة أحدهم وضعها حتى ينتقم من كل الذين سيلحقوا به حين عجز عن إيجاد حل لجسده الفاني معتبراً الأجيال القادمة بعده سبباً في ذلك؟

أ. أفول العقل في سماء الخرافة

تبدأ الخرافة حين يبتكر العقل إجابة خيالية..

لقد احتاج الإنسان إلى فهم نواميس الكون منذ البداية حتى لا يشعر بالغرابة والغرابة، هو كائن منه/فيه وإن لم يستوعب العالم الذي يدور حوله فسوف يبتلعه الحدث، لقد قدم العلم طريقاً طويلاً لثورة الإنسان من البداية حد ما ندركه اليوم ومع هذا فإنه يجد دائماً ما يشغله من ألغاز، لهذا كان الفرد قديماً يلجئ للخرافة للإجابة فحسب، يؤرقه التساؤل فيهرب إلى إجابات خيالية ما شكلت الكثير من الخرافات كرد فعل للفعل المتواضع الذي يتأتى من هذا الكائن. لقد أخفقت الخرافات في سلوكها اللامنطقي باتجاه المجهول، صحيح كل الأمور تبدأ خيالية ولكنها لن تكون نموذجية إلا إذا وصلت المنطقي، وعليه كانت الديانات الأقرب للأساطير لأنها لم تقترب من المنطق إلا إذا أجاب العلم عن التساؤلات التي لم تفلح في تفسيرها، واقتصر جهدها في البحث عن التجارب أو الاكتشافات كنص ديني لتصله بالمنطق والعلم، لكن الناس وهي تتناقل التقاليد والعادات تناقلت الخرافات. ومع مرور الأزمان قدسّتها ونسبت الكثير منها للسماء حتى تحميها من تناول العلم،

وأوجدت تبريرات كثيرة تستغفل بها حتى أكبر المهندسين والأطباء وغيرهم من الإطارات، وهؤلاء الأتباع من الطبقة العلمية هم من شاركوا عن علم أو من دون علم في تمكين هذه الخياليات من قتل العقل "لا أعرف ربما كانت أكاذيب لكن الناس آمنوا بها بما يكفي لكي يعودوا عاماً بعد عام للاستشفاء في معبد أسكليبيوز"³.

ب. النفس بين غالب ومغلوب

النفوس طاقة ما إن يحدد سقفها حتى تختنق، والخرافة إن كان موردها ديني ستتحول إلى ذلك السقف المغناطيسي الذي ما إن تحاول الابتعاد عنه حتى يجتذبك ثانية وثالثة وللنهاية إليه. توفر البيئة المغناطيسية الدينية جواً هائلاً لتقرّم الطموحات، ويستولي فيها المغناطيس المفتعل جراء حدود يمنع خرقها على المظهر العام للتملك، فالغلبة استفردت بها الأكثرية على مر عصور، رغم أن العدد لا يعني كثرته الحق وقلته الباطل، "فرب شنع حق ومحمود مألوف كاذب، والحق حق في نفسه لا لقول الناس" كما يقول ابن النفيس. وبما أن هذه البيئة المغناطيسية للرأي كذلك لا توفر لنا مسافة أمان تحمي الرأي الآخر المختلف فهي تطرح لنا فقه "على قلب رجل واحد"، إذ تستفرد بالقوة التي تتغذى على الجهل والخوف من فك هذا المجهول بطرق تجعل المقدس الذي يحمي مطامعهم الدنيوية قبل السماء في حرج و تلعثم مما لا يستطيع البرهنة عليه، فعنى المختلفون بكثرة من تجنيد الآراء الانهزامية لحروب تكسر جهودهم لأنها تملك مفعولاً جباراً مقابل هذا الطرح الفتى والقليل العدد، فإن لم يقبلوا على الانتحار أقبل أولئك على قتلهم أو تدجينهم، "وإذا استمر هذا فسأصبح يوماً غير قادر على كتابة مثل هذه الجمل، بل ربما أعود وأقرب في هذه الصفحات لأمحو ما كتبت للتو، لأن ما أسميه اليوم بالجنون سيكون قد أصبح عقيدتي"⁴

³ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 148.

⁴ نفسه، ص: 17.

ت. سلطة التكرار

لقد مثلت التمارين الترويضية التي أظهرت مقدرتها عن طريق التكرار جانباً مهماً من تسليح المعاني لترسيخها، وتبديل القناعات الفردية بدخيل جديد يحمي الطقوس من الاندثار، الكثير من الأشياء تصبح معتادة لا لأنك آمنت بها، بل لأنك اعتدت على تواجدها معك، وفيما أنت تمارس هذه العادة تتخلى دون علم منك على ما كنت عليه. لقد أثبتت تجربة الكرة على أنها كرسي أن الإنسان يفقد مقدرته على التمييز بين الحقيقي المجرد الذي يراه وبين ما يريد من حوله إقناعه به، فبعد أن أصر الجميع على أن الكرة كرسي فقد الفرد الحقيقة وأصبح من المستحيل أن يجيب أن الكرة هي كرة.. هكذا هي سلطة التكرار التي أفادت الجهل وأربكت العقل وأدخلت قناعات جديدة يصعب الإيمان بها، ما نجده تماماً في الكثير من الخرافات التي أصبحت من البديهي تصديقها "لم أستطع منع نفسي من سماع كلماته التي عششت في ذهني، بحيث بدأت أرى إشارات في الموضوع الذي كنت بالأمس أرى فيه سوى مصادفات: مصادفات تراجيدية أو موجبة للعبارة أو مسلية"⁵، هكذا تحدث بالداसर متحدثاً عن تأثيره ببومة الذي لا ينفك يكرر عليه تأويلاته للأشياء.

ث. حماية المعتقد الخرافي بابتكار ملموس

يستغل الطقس الديني البشر مثلما يستغل حياتهم في الركود الأبدي على وتيرة واحدة، وحتى يمنعهم من تكذيب هذه الهالة من الكلمات يبتكر حلاً ملموساً من الخرافة، شيء شاهده الناس أو امسكوا به، المهم أن احدهم نقل عن أحدهم أنه موجود، شيء يمكنه أن يكون طيفا على برهان. هنالك ذكاء للجهل يشبه الكهف يسعى كل هؤلاء إلى حفر الظلمات لا بحثاً عن النور بل هروباً من المخرج، "لم يقل أحد قط بوضوح لدي الكتاب، تصفحته، قرأته، لم يستشهد أحد بمقاطع منه، بحيث أكثر التجار جدية وكذلك غالبية

⁵ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 20.

المتعلمين، مقتنعون بأن هذا الكتاب لم يوجد أبداً، وأن النسخ النادرة منه والتي تظهر من وقت لآخر هي عمل مزورين ومخادعين"⁶. وتدعم هذه الأمور اعتقاد العقل الفضولي دائماً بشيء أخفي أو خبيء مهما أكدت المصادر عن عدم صحة ذلك، كان يمكن لذلك أن يخدم الموضوعية بدل تسخيره لخدمة التزييف: "ألا يوجد اسم مئة مخبيء يكمل هذا الرقم"⁷.

عصيان الحجة وإيمان الخرافة

تمثل الحجة ذريعة السائل للنيل من الخرافة، وتمثل الخرافة سطوة اللص على ذهن جسد آخر دون علمه، تنتمي الحجج إلى التساؤل بينما تنتمي الخرافة إلى الإجابة المباشرة القاطعة. ولهذا تم محاربة الحجة وتكفيرها لأنها الوحيدة التي تتطرق إلى عبور الحواجز اللاهوتية، فشكلت فكرة الخرافة خوفاً من ذلك مجتمعات لا تطرح إلا الكثير من الأجوبة الملقنة؛ أجوبة مثلت الثابت مهما تحركت الأجيال والعلوم، لهذا اكتسب المنطق الإنسي المبني على الأكاذيب طرحه أن الحجة تناقش أما الخرافة فلا.

1. الطاعة الضالة والطاعة الدورية وخذلان الآلهة

لطالما آمن الأتباع في الديانات الأولى بخذلان الآلهة، فالآلهة في اعتقادهم التي تخذل أتباعها تتوقف عن كونها آلهة. يقف المهزومون أمام جيش الإله المنتصر وينظرون كيف آلهتهم لم تدافع عنهم فيقولون: لا شك أن إله الغزاة هو الإله الحقيقي، ينقلون لاحقاً كل إكسسوارات العبادة وأغانيتها وطقوسها كي تنظم إلى دائرة لاهوت الإله المنتصر وهكذا تتضخم المدونة الثقافية للإله المنتصر، حتى ينهزم هو نفسه في معركة قادمة أمام إله آخر، سرعان ما يستولي على تراثه هو أيضاً. ظهر بالداسار كشرع أرادته الناس لأنه هزم آلهتهم من السلاطين.

⁶ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 14.

⁷ نفسه، ص: 15.

ثم إن الإنسان في حاجة لإيجاد من يطيعه، وإن لم يطع نفسه وجدها رهينة طاعة الكثير من الأشياء التي تفضل الإقامة في توهيماتها على أن تصنع لها قناعة واعية. يميل الكثير من الناس إلى من يحمي كسلهم الفكري ومن يقوم بدوره عنهم، خاصة فيما يتعلق في دينهم الذي هو رابط وثيق بين ما يقدمونه هنا لنيله هنالك، ويضل هذا الإنسان بطاعته الممزوجة بالعاطفة التي تحتدي دائما بتغيب الفكر المستقل مستمتعا بنعمة الجهل المستقر، بينما يتصدر الكثير من الناس طاعات دورية، حيث لا يلتزمون فيها إلا لمصالحهم أناس يمكنهم أن يرموا بالقوانين الدينية التي لطالما دافعوا عنها وأريقوا الدماء فقط لأن دينا آخر يوفر له الراحة في سكر الحرية غير المنظمة والتي غالبا تقود صاحبها إلى المزيد من تحطيم العقل المدرك لمنطلق الحفاظ على الحياة هو حفاظ أيضا على استمرارية تلبية حاجياته من العمل لا في توقيفه كمبدأ أساسي في الحياة انتظارا لنهاية ميؤوسة وضعت أمامهم كحل، متناسين أن الحل هو في داخل الإنسان، الحل في الاستمرار لا في ابتكار النهاية. الحل في تحديك لطغيان وتجبر السلاطين الذين أوجدتهم أنت بذاتك على العروش لا الله الذي تتوسل إليه مساء لإسقاط مماليكهم: "والمشاعل بأيديهم وهم يتحدون في آن واحد قوانينهم التي تحظر عليهم إشعال النار مساء الجمعة"⁸.

2. تدين البسطاء وتسقيف النصوص

يستمد الطغاة قوتهم من تدين البسطاء الذي يؤمنون دائما بعدالة السماء، لكن الدين السياسي لا يحمي الفقراء بل أصحاب السلطة، ولهذا تجد هذه الفئة من الناس وهي الغالبية الساحقة قد ولت عن حقوقها، وأولت تدينها كاملا لخطب أولئك الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الدين. إذ يميل الناس لتصديق كل التفاسير على أن يشككوا فيها، تدين البسطاء هو تدين مرفوع عنه المطالب، فؤض سائر حياته لمن يقسم حياته بين الحلال والحرام،

⁸ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 171.

دون أن يعتبر أن هذا الحلال والحرام نسبي من عقل إلى عقل، ومن طبقة تدين إلى طبقة تدين أخرى، وأن هذه القوانين الأرضية التي تنسب نفسها للسماء يمكنها أن تنفي ما إن يأتي عالم آخر في الدين ويضع مدخلا جديدا لفهم النص ذاته فتطراً مجموعة جديدة من الحلال والحرام تابعة من فردانية "مفهومه وتطور ما حول"، ورغم هذا ستظل كل محاولاته محدودة مهما اتسعت من جهة النصوص المخوّل له البحث فيها، فالنص الديني مسقف ما يجعل محدودية البحث وحتى محدودية التحرر من فكر من لم يك في مقدورهم فهم الكون مثلما يحدث في تاريخ متطور، وبذلك وضعت للمفاهيم غير القابلة للتجديد عقاب الردة. ما جعل أكثر العلماء يتراجعون ويتراجع معهم العقل من محارب إلى مسالم ومن متقدم إلى مستسلم لتحتل المزيد من الأكاذيب الصدارة بعد أن يشعر العقل بالإحراج: "بدا المدعو إفيديكوم مغتاضاً من فتوري النسبي، الذي يشي بجهلي وزندقتي معا، ولأنتني لم أشأ إغضابه بذلت مجهوداً لأقول: في الحقيقة كل هذا غريب ومثير للقلق"⁹.

3. الصراع بين المنطق والعاطفة

أ. انكسار الوهم على صخرة المعرفة

تعالت الديانات بشكل مقدس حاسمة الحياة لصالحها تاركة الآخرة لمن ولوها لتدوس على قلاع المنطق، وشكلت الممنوعات حاجزاً لاهوتياً حديدياً يمنع على إثرها تجاوزه دينياً أو علمياً، وطرح المنطق منهج التشكيك الذي دعمته الفلسفة التي عاهاها الدينيون واعتبروها كفر وجب تكفير كل من ينتسب إليه أو يؤمن به (أنظر أيضاً بداية رواية "سمرقند" لنفس الكاتب)، فتجلت التيارات الدينية والعقلانية كصراع يرفض فيه العقل التسليم للعواطف المنطلقة من منبع يسوده الغموض وعدم الإتيان بتوضيح، فسأل الحبر والدم على مر العصور، وأعدم الكثير من العلماء والمفكرين جراء الحرج الذي

⁹ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 13.

يضعون فيه الديانات التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها فتلجئ إلى إعدام الرأي المجانب لحقائقها، وتمييع النقل و الإنساب الذي تحدث عنه الكثير من المفكرين عبر العصور عن القصص والنصوص التي تواجدت قبل تواجد الديانات وكيف تشكلت الديانات التوحيدية على أنقاض الديانات الشرقية القديمة السومرية منها والبابلية. فنجد أن عبد الله العروفي في كتابه الموسوم "كتاب السنة والإصلاح" وضع جيدا النصوص اليونانية المطابقة لنصوص جاءت في القرآن، وفي كتاب "قصة الحضارة" الذي ألفه الفيلسوف المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت وزوجته أريل ديورانت يقول أن جورج ألفريد ليون سارتون وهو صيدلي ومؤرخ بلجيكي يعتبر مؤسس علم التاريخ والعلوم، والمعروف بشدة حرصه فيما يكتب معلقا حول الشرائع الموسوية (اليهودية) والأسفار التي تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا التي صيغت منها القوانين الموسوية التي قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد "إن أهميتها في تاريخ الأنظمة والقوانين تفوق التقدير، لقد كانت أكبر محاولة في التاريخ لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم وأداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة في الحياة كلها، وفي ذلك يقول جورج ألفريد: لقد صارت الشريعة أضيقت رداء شد على جسم الحياة الإنسانية، فقد جعلت الطعام والدواء والشؤون الصحية الفردية وشؤون الحيض والولادة والشؤون الصحية العامة والانحراف الجنسي "الشهوات" أي البوهيمية، كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الإلهية، وفيها نشهد مرة أخرى كيف صار الطبيب يفترق افتراقا بطيئا عن الكاهن ليصبح فيما بعد ألد أعدائه؛ "أعتقد بأنه القديس سباستيان، وأعلن لي ببرودة أن صاحب معجزات الشفاء هو أسكليبيوز، نعم أسكليبيوز إله الطب اليوناني في مصحة إبيدور الذي توجه إليه عدد لا يحصى من الحجاج خلال قرون، الكتاب الذي يحوي هذه الحكايات هو الكتاب الشهير بيريجيسي أو وصف اليونان الذي كتبه بوزانياس في القرن الثاني من تقويمنا"¹⁰.

¹⁰ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 147.

ب. قصور الفهم وتميع الظواهر

لا يعترف الإنسان بقصوره في فهم الظواهر، فيلجأ للتسليم وهو المجهول على الكسل الفكري أو تواضع العقل مقابل الطبيعة، قلنا يلجأ للتسليم لعدم حصوله على الحقيقة لأنها ليست متواجدة لا لأنها تواجدت داخل عقل ما. استغل العقول المعطلة عاطفياً والمدججة سلفاً ليؤكد طموحاته اللاهوتية المبينة على مجموعة واهية من الأكاذيب غير القابلة للبرهنة، وحتى يدعم ويحصل على الأشياء المنطقية بطريقة غير منطقية يخترع تبريراته و يمكنه حتى اختراع إلهه كما كان قديماً يفعل عبدة الأصنام، "بعد أن ينتهي زواري من سماع حجبي يستسلمون عادة، بعضهم خائباً وبعضهم الآخر مطمئناً، لأنهم إذا لم يكن بوسعهم الحصول على هذا الكتاب، فهم يفضلون الاعتقاد بأن لا أحد آخر في العالم سيحصل عليه"¹¹.

قد يصبح الإقرار شيء من الاعتراف بالجهل، يحبذ الكثير من هؤلاء تعاطي الجهل مراراً على أن يؤمن بحل العقل لا لأنه يريد المزيد من المتاعب فحسب، بل في تلك الصدمة والإهانة الفكرية التي ستتكبده من بعد إن كان الجمع يعودون إليه في كل شاردة وواردة، يتمسك أمثال هؤلاء بالماضي والتفكير اللامعقول تمسكاً في مكانتهم أيضاً، وفي اسمهم أكثر من تمسكهم في مسؤوليتهم تجاه أجيال ينجبوا ليحيوا من بعدهم: "أبي الذي لم يستمع لصوت العقل غير وارد بالنسبة له أن يقرّ بأن السنة التي تنبأ بها الزوهار ليست سوى سنة عادية"¹².

ت. تعالي الخرافة وتواضع العقل

يرتبط العالم بتواضعه أمام الطبيعة ليحصل على المزيد من الإجابات، فيما يرتبط الكاهن بتعاليه على الطبيعة لأنه حصل على كل الإجابات.. الفارق شاسع ما بين القطبين، ما بين المعرفة والادعاء؛ يحتاج الكاهن لتلك الرفعة

¹¹ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 15.

¹² نفسه، ص: 81.

حتى يحمى أكاذيبه، بينما العالم لا يحتاج سوى للتجربة التي تفرض نفسها على الجميع كأفراد، التجربة تتواضع لتحصل على نتائجها، هذا ما لا نجده في النصوص الدينية المسيجة بالحدود، فيحصل اصطدام وشقاق دائم بين من تملكوا زمام الدين وبين البسطاء أو العقالين بطريقة التعالي المسخر جانبها الأكبر للاستهزاء بمن دون ذلك، والتقليل من قيمة الفرد، تبدأ من عدم انتماء أولئك للدائرة التي سطرت لتحميمهم من نقصان الدلائل، فيفرض الكهنوت تميّزه في تدمير كل جدار فكري يعلو على معتقده ويمكنه من رؤية من يكتنز خلف هذه الأسوار النصوية العالية المليئة بعيوب أساءت للدين والإنسانية: "لم يكن رد فعل الموسكيفي خيبة ولا اطمئنا، في البداية بدا هازناً"¹³.

4. اللصوية والكاهن

لقد فتح أوصياء الدين مجالاً واسعاً بفهم المتواضع، وكذا بحشوهم للنصوص بالتواطىء مع رجال السياسة منذ العهد الأموي ثغورا وأبواباً للصوص والمرترقة للانتساب إلى خلية عظيمة نشأت عن جهل وتعسف واستغلال، كذلك لتجارة بيع الوهم الرابعة والرائجة، وهذا يؤكد أن هؤلاء لم يكونوا بالمطلق مستحوذين على الفهم الصحيح للدين المتعدد والمربك والذي يحمل الكثير من المتناقضات والثغرات التي سمحت للعديد من ذوى الاحتياجات للأدلة بالدخول غيرها واتكأهم إلى بنود مجموعة من البنود المقدسة التي تحمي شرهم أو تماديهم من أي عقاب وحتى من القانون. حصل على إثر هذا تعدي صارخ على الإنسانية جمعاء وفرخ العديد من المتطرفين في كل بقاع الأرض، وعانت الشعوب كثيراً جراء الاستهتار الجاهلي الذي قدمه ولات الدين على أنه الدين الصحيح الذي لا يحتمل أي تشكيك، فظهر المجرمون بجرمهم أمام الكاميرات دون ريبة من أحد لأن أسطولا من الخزعبلات المقدسة يحميهم كطالبان وداعش ومثيلاتها في كل ديانة، وليس هذا فحسب فقد

¹³ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 15.

انبثق أيضا من تجارة بيع الوهم سلعة المتاجرة بالآيات ومن ثمة ظهور الرقية الشرعية كمنافس للأمراض النفسية التي تحتاج إلى طبيب أكثر من حاجتها إلى راق وشاذ يتحول في قلب الرقية إلى أكبر زاني بمفهومه الديني ثم يحمي نفسه من هذه الرذيلة برمز الغواية الذي اختصره الكثيرون في شأن المرأة، فحتى حين يقوم بذنوبه يحملها هذا الكائن البريء، ويستخدم الكثير من اللصوص التجارة بالوهم في خلق ما يحتاجه دعاة الدين، أي تأمين لهم وهمهم كما طرأ في الرواية عن الكتاب حين ردّ بالداسار قائلا: "يا صديقي المسكين وددت لو أقول له، أنت محظوظ بأنك وقعت على تاجر شريف، ستجد من المحتالين الذين سينهبون ذهبك قريبا"¹⁴.

5. المقدس قبضة من حديد

يدّعي الكثير من الناس في يومنا هذا أن الديانات التي يتناولها الأئمة على منابرهم تدعوا للتسامح والإصغاء والتدبر والتبصر في علوم الخالق والخلق وقوانينه التي تسيّر الكون، لكنهم ينهون صلواتهم بسيل من الدعاء على الغير لأنهم لا يدينون بديانتهم. الأصح إذن حول حقيقة هذه الديانات المستهلكة على المنابر هو توقعها حول أحادية النظرة، إن صح التعبير هو القبضة الحديدية التي تضرب كل من يعتدي بالتعدي على مصالحها "الديوية" والتي تنسب زورا للآخر عند البعض. الدين الموازي ما هو إلا كثرة تحارب سياسيا وعسكريا وتفرض منظورها بالشدّة والعنف ولم تدع وكرا إلا واتخذت منه منبراً "لم يعد الرجل يسمعني، تقدم مني وأمسكني من ملابسني بقبضتيه القويتين. شدني إليه هارسا ذقني فوق صدره الشبيه بصدر عملاق ظننت أنه سيخنقني أو يهشم رأسي على الجدار"¹⁵، "ذهبوا جميعا إلى القداس، الذي يعتبر هنا إجباريا، إلى درجة أن العصاة الذين كثيرا ما يشي بهم جيرانهم، يعاقبون بالسجن، وأحيانا بالسياط"¹⁶.

¹⁴ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 15.

¹⁵ نفسه، ص: 16.

¹⁶ نفسه، ص: 329.

يمارس الكثير من رجال الدين كل طرق الاغتصاب للّ عبق النصوص الدينية إلى ما يخدم صالحهم، ثم يفرضون على الناس طاعة راحتهم التي تعتبر شيء مقدس على حساب الفقراء الذين يدخلون في هذا الدين بداعي الخوف من العقاب الذي وضعه هؤلاء جراء احترامهم لا احترام لله الذي غلفوه به ظاهريا: "غالبية الحاخاميين لا يصدقون ساباتاي، لكنهم لا يجروون على الإفصاح عن ذلك لأن صفوف الرعاى مغلطة كليا"¹⁷.

هناك أيضا استيلاء على النص الديني، فالدين للناس كافة هكذا نص عليه الدين، لكن المساهمة في فهمه اقتصرت على بعض الرجال الذين لا يخونون مصالحهم، ولهذه الأقلية الحق في سن القوانين، ولهذا نجد الكثير من التناقض في الديانة الواحدة وما بين الديانات أيضا رغم أنها قادمة من المصدر ذاته "الله". لقد أبدى الأئمة امتعاضهم من تدخل بعض العقلاء في تصويب الآيات واتهموهم بالكفر والضلالة بل واغتالوهم، لهذا تحتاج عملية استرداد الله من يد اللصوص إلى شجاعة تخلص النص من أنانية تسلط المدرسة الدينية، وعلى قرون حرم على البشر خارج تلك المدرسة التي تخصصت وتفردت بتعيين أصول الدين ونمط العيش "فالحلال بيّن والحرام بيّن" وسنت لأجل كل هذا أحاديثا تحميها من الانتقاد وتدعمها في التسلط كلحوم العلماء مسمومة وغيرها من القوانين الأرضية التي تنسب للسماء.

6. الإلهاء الديني عن الحياة الدنيوية

بحث الكثير من الأئمة الناس بالابتعاد عن طاعة الملذات، وينعتون الدنيا بدار اللهو والامتحان، وعليهم إتباع ما أوتي إليهم من تفسير بدل ما أتي بهم إلى الأرض على أقل تقدير، والتفرغ لما يقولون بدل التفرغ لما يعمل به، فراحوا يسنون قوانينهم التي تستمد صلاحيتها من أقوام كثيرة بعيدة الصيت

¹⁷ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 181.

والحضارات الراسخة في العديد من الأمكنة، ليجدوا ملذاتهم في حرمان الناس وأحجياتهم الضالة في تدوير الوقائع من العادي إلى المنبوذ، ومن البسيط إلى السحريّ. المنظومة الدينية ملحق طبيعي للمنظومة السياسية، ولحماية أملاك السياسة الحياتية عليها أن تجمل الموت والآخر على حساب الحياة الممكنة لحماية فئة معينة من مطالبتها بحقوق الآخرين، مهمة السلطان هي إظهار الآخرة على شكل الخلاص بدل تحبيب ممارسة الحياة لأنهم رسخوا لقيم العفة التي تعني بالضرورة ترك الحياة، وبالغوا في ازدياد هذه الحياة بترهيب الناس من العقاب. لكن نتساءل دائما ماذا لو لم يك ثمة جنة وحوار عين وأنهار خمر و الكثير من المعجزات المغرية في انتظارنا؟ ولأجل هذا علينا دائما أن نشير في المقابل إلى ثقافة الحياة، تلك التي نعيشها واقعا محسوسا، وملموسا هي حق، وإلا ما معنى وجودها؟ نعم وبغض النظر أننا لا نملك أجوبة حاسمة عن ما بعد الموت لكن قراءة الماورائيات التي بدأت مبكراً في الوعي الجمعي لسيرورة البشرية فإننا نجدها أكثر وضوحا وبروزا مع نهاية المشاعية، وبدء تشكل الملكية الخاصة التي انتهت إلى عصر الإمبراطوريات، ومن ثم الدولة الحديثة وهو يشير دائما إلى الحضور السياسي للفكرة أكثر مما يشير إلى الحضور الروحي أو الإنساني.. لهذا فإن منظومة رجال الدين لا تختلف عن منظومات المافيا في نظر بالداسار، لكل فرد فيها معلومات محددة لأداء دور محدد، وتقوم على تراتبية مقدسة أكثر من الدين نفسه، "أية أعاجيب؟ إدريس يملك الكتاب منذ سنين. أية أعاجيب حققها؟ هل جعله أقل فقرا؟ أقل عجزا؟ من أية مصائب صانه"¹⁸. وكذلك الأمر مع الأب توماس حين قال لبالداسار: "لأنك أنت سافرت في رعاية الله، وها أنت ذا في القسطنطينية، أما الفارس الذي حمل في أمتعته الكتاب المخلص كما يزعمون، فإنه لم يصل قط رحمة الله"¹⁹.

¹⁸ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 25.

¹⁹ نفسه، ص: 104.

7. المرأة

تهدر حقوق المرأة حتى حين يتخلى عنها زوجها فإنها مجبرة على الوفاء لخيانته (حالة مارتا فى الرواية). يندفع المجتمع لتكميم إرادتها ونعتها قبلا بالعهر أو اللادأصول بينما هي قضية لا عدل وعدل، وتنتقل ملكية هذه المرأة إلى الأسرة بأسرها إذا ما غاب هذا الزوج أو هرب لأنها تتحول إلى شأن ارث يجب مراقبته وحصاره لحماية العفة وشرف اسم العائلة حتى لو كانوا من أرذل ما خلق الله. يتحول شرفهم إلى مهنة ضرورية حين لا يتبق للبعض شيء يدافعون عنه، فتعامل النساء معاملة السجينة التي خلقت لتكون كذلك، ويصبح مصيرها الفردى المظلومة به أكثر ما فوضها ظالمة "مراقبة من جميع أفراد أسرة زوجها الداعرين خوفا من أن تفكر بتلويث شرف الزوج المتجول"²⁰.

تضع النساء كل حياتهن فى رجل، وبمجرد ما تنتهى تلك الآمال تتحول إلى منتظر هامشى يطمح للوصول للآخرة بأسرع وقت. تزيد المرأة عموما من تضيق الخناق على رقبته حين تضر على عدم فتح رؤى أخرى تمنحها حياتها الإنسية، تحتاج المرأة إلى الرجل ليحمل عنها عيون الناس واحتياجاتها، لهذا يعتبر استقلالها المادى نوع من فك هذا الرباط الذى أصبح مقدسا من حيث التابعية وممارسة فى خفائها تعنى العبودية.. ترتاب الفتيات هذه الأيام من الاندفاع نحو خيار كهذا، خيار كسر هذا النمط التقليدى من العبودية والظهور، لأن هذا المبدأ يتناسب عكسيا مع القوة الجاذبة للعrsان، الأمر الذى رسخته المرأة أكثر من تبني الرجل له سابقا؛ "انتهى العالم بالنسبة لي فى اليوم الذى خاننى فيه الرجل الذى كنت أحبه، ويعد أن جعلنى أخون والذى ذاته"²¹. بعدها تبرز النزعة الانتقامية التي تشعر معها الكثير من النساء بالمساواة والعدل، وبدل التفكير فى كيفية الخروج من مأزقها وتحبيب الحياة تروح تدعم فكرة الهلاك بكل ما أوتيت، لقد سلبت من حريتها فى الاندماج

²⁰ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 35.

²¹ نفسه، ص: 79.

داخل الحياة مجددا، لأن المجتمعات المنغلقة على ذاتها تصنع من الفرد إله لا يستبدل وحين يخون هذا الإله يتحول إلى مشكلة نفسية يصعب بعدها التقدم دون أخذ بالتأثر منه. لقد تحولت المرأة في الأخير إلى مجموعة من رذات فعل لأفعال أصيلة يقوم بها الرجل: "هذا الطوفان الذي يتبؤون به، لا يخيفني أيضا إنه سيجعل جميع الرجال وجميع النساء متساوين في المصائب"²².

تعتمد النساء في حريتهن على السماء، المرأة كائن يعوّل على من يسترد له حقوقه أكثر من التفكير في أن تسترد ذاتها المنحورة داخل المجتمع الذكوري. هذا الأخير يتخذ من العنف وسيلة جادة يمارسها لتبرير مشاعر انكساره، أو لتحقيق إجمالي عراقيه المختصة في تقزيم وتسقيف دور ومجال حرية المرأة. تتعرض النساء يوميا للعنف الجسدي والنفسي جراء مطالبتها بحق ممارسة حياتها كشخص عادي، الأمر الذي لا يتطلب إلا دفع هذا المخلوق إلى واجهة المعقول لا السيطرة عليه بكل أنواع الترهيب، يفرض المجتمع عنفه التام لتقديم الإرغام على أنه طاعة، وتغليف الضرب بالحق الذي يجب أن تأخذه هذه النسوة متسترين بآيات تحمي عجزهم عن أن يكونوا أناس تامين. لم يخل الدين من هذه الثغرات التي تسلق عليها كل متسلق واستغلها من يعانون أزمة ثقة أو أزمة ائزان، فالعالم الإسلامي (وحتى الغربي) يحمل وجهين منافقين لسيرة النساء أحدهم يضع الجنة تحت قدمها وآخر يضربها في المضاجع "وبعد أن تلقت ضربات رأى الجميع آثارها فوق وجهها ويديها، استسلمت الأرملة وقبلت بارتداء ثياب ملونة جديدة"²³.

ثمة الكثير من النساء يتم تزويجهن دون الرجوع إليهن، تعامل هذه النساء معاملة القاصر طيلة حياتها، قاصر من حيث الأخذ برأيها دون الاهتمام بالقاصر الحقيقية التي تزوج دون سن ذلك. ركل القوانين دون الاعتبار لها طريقة المجتمعات الدينية أكثر منه الحياتية القانونية المدنية، تعيش الكثير

²² أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 79.

²³ نفسه، ص: 35.

من النساء مع رجال أرغموا على الزواج بهم، يغتصب كل ليلة تحت أسقف قانونية دون أن يدري أحد.. لقد شوهدت التقاليد والعادات الحياة الأسرية وجعلت منها عنيفة إلى أن خرج من بين ظهرانيها أجيال تستسيغ سفك الدماء. ظلت المرأة محصورة في مجال الحفاظ على النسل والمتعة، الأمر جعل من أدوارها الحياتية منعدمة، لقد اشتهر التاريخ بالسبي، وقدمت الكثيرات كهدايا للسلطين، وبيعت كالسلع في أسواق النخاسة، ونظر اليوم كيف عادت كل هذه الدسائس التي نسبت للدين مع عودة التطرف الديني الذي اتخذ من بلاد الشام مقراً لدولة الخلافة، لن يتخلى النص الديني عن مروياته مادام ثمة غريزة حيوانية تطغوا على العقل أشد ما يطغوا عليها. فالجهلاء ينسبون دائماً إلى عوزهم الجنسي في ظل يرون أن العلم شيء من الكماليات يستطيعون اقتنائه ممن يهكون حياتهم للصالح العالمي.

تقوم الديانات بصناعة الاحتشام من وإلى المرأة وتضع بديهياتها عراقيلاً ثم تنسبها لما أمر الله، وتضع نواقصها أصولاً ثم تنتقل لتلويث كل من يخوض في غيرها. فنجد أن اسم المرأة يعد عورة كما يلقيه أئمة كثر، كما تتادى بالجمع كنوع من المحافظة على شرفهم. نسبت دائماً لما يسهل تلطيخه بالنوايا السيئة، كأنها قطعة قماش ناصعة في حياة مليئة بالأودار وعليها أن تجاهد بمفردها على الحفاظ عليها، بدل أن يحاول من حولها تنظيف قذارته من حولها: "أحافظ على أسلوب غائم فأقول جماعتي أو أهلي كما يفعل رجال هذا البلد بدافع الاحتشام الشديد"²⁴.

8. بين التسامح واضطهاد الأديان

"دين التسامح"، هذا ما يعنون به الأئمة ومن خلفهم التابعين عن كل ديانة يخلصون لها إخلاصاً أعمى، رغم أن الإخلاص يكمن في تحرير الدين من الخرافات والتجاوزات.. التسامح هو نوع من الرحمة التي تعنى بالضرورة إيجاد مجال للمختلفين عنا في الحياة، وإيجاد للأخطاء أعذار قبل الأحكام، لكن الأئمة

²⁴ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 70.

يسعون لطرح التسامح بما يعنيهم هم للضحك بالمفردة على ذقون العواطف الدينية، لكن وبما أننا نعرف ماهية التسامح فلا يجب تعريضه للتغريض، وبدل أن يطرح لنا تسامحا ينسجم مع العداء علينا التساؤل والشك في العداء السماوي الذي يفرضه علينا خلق الله، أي عداء الكتب السماوية فيما بينها، ومن ثمة عداء الكنائس والمساجد وعداء المسلم للمسيحي واليهودي، وأنهم عن لا دراية منهم يضعون الله في حرج أمام العقلاء. فإن كان الله أنزل هذه الكتب حتى يحدث شقاقا وقتلا وعداوة كما يتبجح به هؤلاء فلماذا يا ترى ينزله الأئمة عن المنكر؟ إذن فما يفعله هؤلاء أشبه بالتلفيق واستغلال عدم دفاع الله عن نفسه بالتسلق عن طريق أقواله للوصول إلى مبتغاهم الذي يصرون أنه طريق الله: "حين تصبح العقيدة مبغضة، فليتبارك الشكاكون"²⁵ (ميمون متحدثا عن مدينة أمستردام).

تتلى السلطة الدينية بسن التهم بين الناس، وفصلهم عن بعضهم البعض من ديانات إلى طوائف حتى تستطيع السيطرة عليهم و يسهل قمعهم بالورع المزيف، وينشأ اضطهاد يقوده شلة من مرتزقة الدين ليصنعوا لهم مجدا من سقوط الإنسان في درك التدين الموازي. فتدين الإنسان البسيط معرض للخطر دائما ومعرض لمخاوف الأئمة عليه، لهذا لا يسمح بالمطلق بالإفصاح عن ديانات مختلفة التي وفي غمضة عين ستتحول إلى تهمة وتناولها الكثير من المتطرفين على أنها كفر وجب القصاص من أصحابه. ففي العراق كانوا يضعون حرف النون على أبواب النصارى ثم يمهلونهم وقتا للدخول في ديانتهم أو الرحيل أو القتل.. هذا النوع من التعبئة الجمعية لمن هم أحق الناس بالنفس والأرض والحياة إنما هي تعبئة جاهلة يراد بها الإستيلاء لا الإرشاد إلى طريق الحق كما يدعون: "يقولون لي أنها المدينة الوحيدة التي يستطيع فيها الإنسان أن يقول أنا يهودي مثلما يقول غيره في بلاده أنا مسيحي، أنا مسلم دون أن يخشى على حياته وورقه وكرامته"²⁶.

²⁵ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 66.

²⁶ نفسه، ص: 69.

يولد الإنسان حراً ثم يبدأ في اختراع قيوده انطلاقاً من الاسم، كما أنه لا يولد وفي قلبه ديانة محددة وسم بها، بل سيرتها عن قومه. الدين شيء يكتسب من مجموعة ثم يتحول إلى علاقة فردية بين العبد وربّه، الأمر الذي يتدخل فيه الكثير من المتطرفين مدعين علماً واسعاً لم يسع غيرهم، وحده الإنسان على فطرته التي جبل عليها يستطيع إخراج أجمل ما في إنسانيته وإنسابها لدينه لحمايته من الشر بفتح علاقات أوسع ينتمي الكل فيها لطبقة الإنسان أولاً وأخيراً، والابتعاد عن طبقة الأديان ومن منهم الأقرب والأصح والأعلى مرتبة، ونجد البطل في الرواية واصفاً العلاقة التي تجمعها بتجار طرابلس كانوا يهوداً أو مسلمين: "فعندما لا آتي للتزود بالبضائع من هنا، يرسلون لي بمبادرتهم الخاصة، القطع التي يمكن أن تثير اهتمامي والتي ليست من مجال اهتمامهم، أي بالدرجة الأولى بقايا أشياء ثمينة والأيقونات والكتب القديمة المتعلقة بالعقيدة المسيحية، معظمهم مسلمون أو يهود"²⁷.

9. الظاهر والدين

في المجتمعات التي تعتبر للظواهر يشكل الغلو ضرباً من القدسية، يحب الإنسان التقى إظهار تقاه لا في تصرفاته مع الناس بل في مظهره وذهابه إلى بيوت الله، يحب أن يراه الناس ذاهباً إلى الله قبل أن يراه الله ذاهباً إليه. يغلب على الكثير ممن تسلقوا العفة عن طريق المظهر وانتسبوا للديانات عن طريق الأردية و اللحي وغيرها من مظاهر الورع طابع الاستمتاع بالضحك على الناس ومن ثمة أنسب الدين لتقصير السراويل وإطلاق اللحية والمواضبة على بيوت الله أو حتى ترديد بعض الأحاديث، بدلاً من أن ينسب إلى ما تقدمه للإنسان من معاملة حسنة، إلى صدقة، إلى ستر أو مسامحة وغيرها من التصرفات التي ولدت قبل نشأة كل الديانات.

²⁷ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 42.

يسلم الناس ثقتهم العمياء للذي يظهر بورع بسرعة فائقة مقارنة بالذين لا يرتدون ما يدل عليهم وليست لهم أية علامة غير أنهم عاديون، مع أنه يمكن لأكثر الورعين التحايل عليك ويسرقك. هكذا تعيش المجتمعات المبنية على الأشكال والزخارف الخارجية مع قبيلة من النفاق والادعاء، لأن الديانات أيا كانت لطالما أخفت تحت أرديتها أكبر المجرمين، ولأن المجتمع عاطفي دينيا بالدرجة الأولى يكفي أن يقرأ عليهم بعض الآيات أو التفاسير المغلوطة حتى يسلم ويستسلم، وأعتقد أنه منذ العصر الأموي ونحن نتعامل مع مجموعة اللصوص جعلوا من حياة البشر مستشفى للتتويم المغناطيسي "في الأوقات العادية نادرا ما أذهب إلى القديس، ولا أحتفل بعيد الصليب، ولا أعطى لبقايا الأشياء المقدسة قيمة إلا بالقروش، لكنهم كانوا سيكفون عن احترامى إذا تركت رموز ديني وأمتي تتعرض للإهانة"²⁸.

إن لم يجد الإنسان إلها له اخترعه، هو دائم الانتظار إلى من يقوده من اضطهاده إلى مبتغاه كإنسان، فيجد في صناعة الهياكل الخرافية وسيلة لنقل مهامه إليه أما هو فيتحول إلى مخلص لتلك الأوهام الدينية الخارقة التي جسدها هو بذاته، وقد ظهرت شخصيات كثيرة وجماعات وقبائل وإمبراطورات تنتظر هي كذلك جماعات وديانات لتقودها إلى قوتها. وينسى الإنسان أن قوته نابعة من داخله، وأن هذا المسيح هو نفسه وأن غودو لن يعود لمنتظره، إنها حالة نفسية جماعية تمارس بإتقان حتى يظل هذا المخلوق محدود المطالب، وفي أحد ما ذكره الراوي جماعة "نافذوا الصبر" في حلب الذين يؤمنون بوجود إمام سيقودهم إلى مكانة يستطيعون معه إسقاط العروش وجميع القوانين.

10. الغربة الدينية وسن الوعي

ثمة سن معين للوعي عند سدنة الديانات وهو سن الموت، لا تفرط هذه المجموعات المسلحة في اجتهاداتها ولو خاطئة. لهذا يقدمون أنفسهم على أنهم أدري منك بحياتك، فمادمت مادون سن الوعي بالنسبة لهم فإنه

²⁸ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 64.

من غير المسموح لك الإشهار باعتراضك، وهذا ما يجعل الناس في غربة عن دينهم، إذ تفرض عليهم الكثير من الطقوس الفارغة التي لا يؤمنون بها ولا يرغبون في ممارستها، طقوس نابعة عن عدم اعتراض فحسب لا عن إيمان بها. لهذا نجد أن الكثير من المعترضين المباليين لمن يعترضونهم يحمون في السر واجهات عظيمة للمزيفيين، فثمة من صلى لأن الناس تصلى، وثمة من يصوم لأن الناس تصوم، وثمة من يعبدون البقر لأن الناس يفعلون ذلك. لقد أفرغ الدين من محتواه حين أصبح طقساً أكثر منه روحاً، وحين أصبح رياضة أكثر منها مطلب نبيل وحوار بين الله وعبده، لقد نصبت فرائض الدين وهدمت فريضة فهم الدين: "أذهب إلى الكنيس حين يجب على الذهاب، لأكون قريباً من أهلي"²⁹.

11. الغشاة الدينية

سلطة العاطفة الجماعية جّارة، والإنسان الذي لم يك في يوم من الأيام ذا استقلال عاطفي ديني عن الجماعة لن ينظر إلى الدين إلا بعين مقتنع مهما حاز على مراتب عالية من العلم. استطاع رجال الدين المدعّمين برجال السياسة الذين يعرفون جيداً انطلاقة من خبراء في النفس البشرية من التمسك بحياة أناس يقطنون في الجهة الأخرى من الكوكب عبر أكبر آلة عاطفية تدجينية وهي العاطفة الدينية، هذه العاطفة لا تنتمي إلى أية جغرافيا بقدر ما تنتمي لضعف الإنسان أمام إشارات عقله مقابل إشارات الكون التي غالباً ما تفسّر حسب ما هو متوقع. العقل الراكد لن يستطيع تكوين وجهة نظر مختلفة عن هذه التنبؤات يميل إلى ما مال إليه أجداده، ربما يتعلق الأمر الآن بالطعن في شرف الأجداد الفكري أكثر من الطعن في تقزيم مفهوم الحياة، حيث أصبح الرسل ورجال الدين أشد قدسية من الله نفسه الذي أوجدتهم ومن المفروض أوجد تلك الرسائل خدمة لطاعته عبر خدمة البشر لبعضهم البعض. ونرى في الرواية كيف عومل ساباتاي باحترام

²⁹ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 81.

وتبجيل عظيمين حين استدعاه قاضي سميرنا، وكيف حدث الأمر ذاته حين كان في حضرة الصدر الأعظم بالقسطنطينية.

المال أيضا في حاجة دائمة إلى اسم تاريخي، لهذا يدرك أصحاب الأموال أنهم في حاجة إلى اسم يرفع من شأنهم. فالمال لا يشتري الاسم فثمة من عاش غنيا بماله وثمة من عاش غنيا باسمه، الأول يشتري احترامًا مزيفاً، والثاني يولد محترماً باسمه: "لست طالب الزواج الشاب الجميل الذي تحلم به الشباب، وثروتي لا تقاس بثروته، لكني أدعى أمبرياتشي"³⁰.

تعاني شعوب الجزاء وانتقام السماء من عقدة العقاب، ثم ما إن ترنكب الطبيعة أي ردة فعل عنيفة جراء محفزاتها يركض الوعاظ لانسابه لغضب الله، وأن الناس الذي أمروا بطاعة الله هم سبب وجيه في هذه الكارثة إذ لم يؤديوا فروضهم على أكمل وجه، دون أن يفهموا أن السماء لا شأن لها بالأرض وأن هذه الكوارث صنيسة بشرية وحتى التهويل لها صنيسة بشرية يقوم بها الميؤوس من أمرهم حين يتلون على الأقوام آيات الضغائن مغلفينها بشيء من القدسية لحمايتها من الجدل الذي يتفرد به العلم. فيتسلقون الفوقية الدينية التي تسمح لهم بأن يطلوا من بروجهم للضحك على الخلائق التي يستطيع أتفه لص ديني أو اقتصادي أو سياسي اللعب بعواطفهم أمام ظاهر التقوى: "هل تعتقد أن السماء تعاقبني لأنني لم أتقيد بالصلاة"³¹. "هل تظن بان السماء تعاقبني لأنني لا أتقيد بالصوم؟ - أتعني أن ملك فرنسا قد حشد أسطوله لخوض الحرب ضد إنكلترا لأن السينيور غريغوريو مانجيافاكا لم يحترم أيام القضاة؟ لا ريب أن كبار المؤرخين سوف ينكبون على هذه المسألة الخطرة غدا. ظل محتارا لوهلة، ثم انفجر ضاحكا: - أنتم، يا آل إمبرانتشي، لم تشتهروا قط بورعكم، ولكن السماء لا تتخلي عنكم!"³².

³⁰ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 250.

³¹ نفسه، ص: 251.

³² نفسه، ص: 275.

خاتمة

مربط فرس الرواية هو أن الإنسان في تساعل مستمر وأبدى عن ردود فعل الله من البشاعة التي تسلط على الأبرياء، ومن عدم محاولته توقيف التجاوزات، ويجبر على التسليم لأمر أنه يمتحننا، وفوج يرحب أنه تخلى عنا، لكن من حق الإنسان أن يتخلى هو عن فكرة أن الله عرضه لهذه التعاسة، لأن للإنسان دخل غير مباشر ومباشر في النتائج التي تحدث معه: "كم من مرة ساعدت أشخاصا فقراء تخلى هو نفسه (ليسامحني مرة أخرى) عنهم، لم أعتصب قط مال الضعفاء، كما لم أذل من أعيلهم، فلماذا يسمح بأن يتكالب على البعض بهذا الشكل، بأن يدفع بى الإفلاس، وأن تهدد حريتي وحياتي؟"³³. الرواية شاهدة أيضا على قدرة الكاتب أمين معلوف الرهيبة في وصف وتحليل الظواهر الاجتماعية وبخاصة تلك المتعلقة بالديني.. هي أيضا شاهدة على وفاءه لتيمة "الإنسانية" التي تطغى على مجمل أعماله والتي من خلالها يحرص علة مد الجسور بين بنى البشر مهما كانت اختلافاتهم وفروقمهم³⁴. الرواية دعوة إلى التسامح فلا فرق بين أهل جنوة والبندقية³⁵، لا معنى للصراعات الطائفية والمذهبية في الدين الواحد (الأرثوذكس ضد الكاثوليك ص 322-323؛ البروتستانت ص 400). في الرواية أيضا تمجيد للشك (ص 313) ومواصلة البحث بعيدا عن إدعاء امتلاك الحقيقة او اليقين. "كان محقا، وقد اقسم أغلظ الأيمان أنه يتوق لحرية المعتقد مثلى لا بل أكثر منى. ولكنه أضاف أن الحرية يجب أن تُمنح للجميع بصورة متبادلة، كما لو أن منطق الأمور يقضى بأن يستجيب التسامح مع التسامح، والاضطهاد مع الاضطهاد."³⁶



³³ أمين معلوف، المرجع السابق، ص: 141.

³⁴ Voir : Joseph Maalouf, *Amin Maalouf, Itinéraire d'un humaniste éclairé*, Paris, L'Harmattan, 2014.

³⁵ أمين معلوف، المرجع السابق، أنظر: الصفحة 302.

³⁶ نفسه، ص: 401.

المراجع

- أمين معلوف، *رحلة بالداسار*، ترجمة نهلة بيضون، الجزائر، ANEP، دار الفرابي، 2001.
- عبد الله العروي، *كتاب السنة والإصلاح*. المركز الثقافي العربي، 2008.
- Amin Maalouf, *Le Périple de Baldassare*, Paris, Grasset, 2000.
- Collection Présence de l'écrivain, *Amin Maalouf, Heurs et malheurs de la filiation*, Éditions Passiflore, 2016.
- S. Dir, Rachel Bouvet et Soundous El Kettani, *Amin Maalouf, une œuvre à revisiter*, Québec, Presses de l'Université du Québec, 2014.
- Joseph Maalouf, *Amin Maalouf, Itinéraire d'un humaniste éclairé*, Paris, L'Harmattan, 2014.
- Mémoire de magistère : *Initiation littéraire, écriture et réception du voyage : le cas du Périple de Baldassare d'Amin Maalouf*. Présenté par : Myriam Bouchoucha. Sous la direction de Jamel Ali-Khodja. Université Mentouri de Constantine. 2007-2008.

